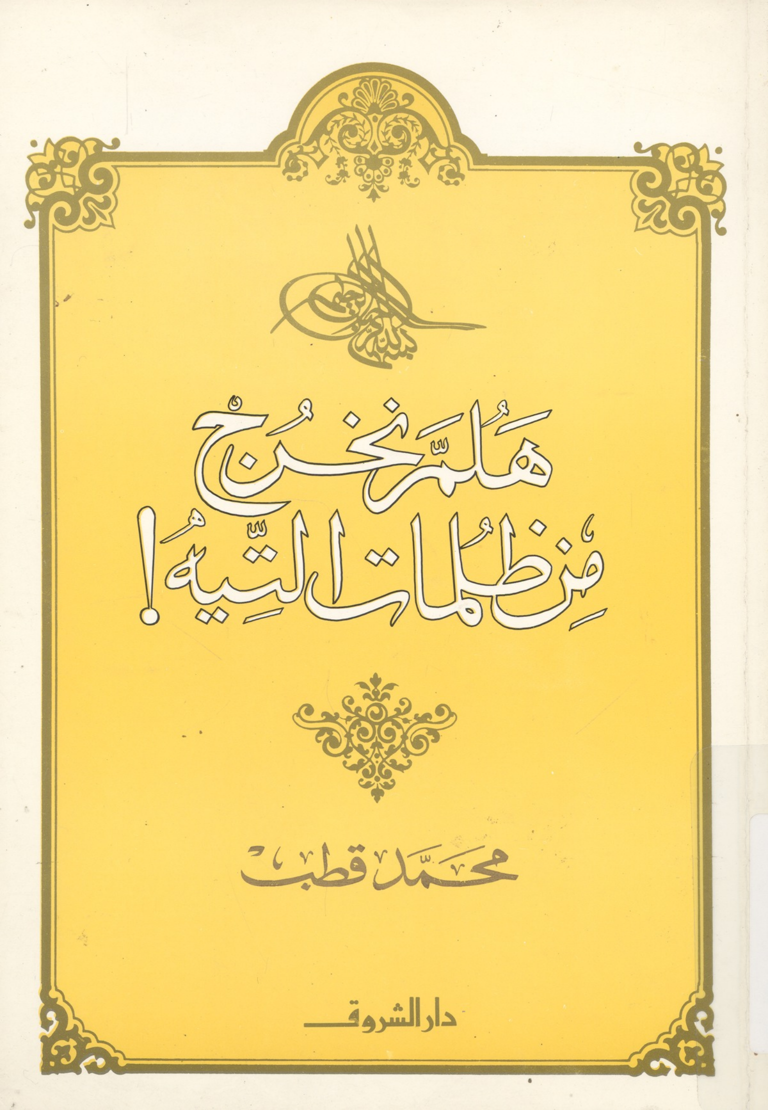


بسم الله الرحمن الرحيم
هلمّ نخرج من ظلمات التّيه!
محمد قطب
دار الشروق

هلمّ نخرج
من ظلمات التّيه!

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٤٨١٤ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - ٨١٧٧٦٥
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

محمد قطب

هلم نخرج من ظلمات التيه!

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

صدق الله العظيم

مقدمة

« هلم نخرج من ظلمات التيه . . ! »

هذا نداء للأمة كلها التى تنطق بلسانها « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

إن هذه الكلمة العظيمة هى التى أخرجت هذه الأمة إلى الوجود أول مرة ، وهى التى رفعتها إلى مقام الخيرية على كل أمم الأرض ، وكل أمم التاريخ :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] .

وهى التى دفعتها إلى الحركة فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، فأوصلتها إلى مرتبة التفوق فى جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والخلقية والروحية ، وجعلت لها ذكرا ضخما فى الأرض بعد أن كانت على هامش التاريخ !

ولم يكن النطق بلا إله إلا الله هو الذى صنع ذلك كله !

إنما كان هو النطق بها ، واليقين الذى يملأ القلب بحقيقتها ، والعمل بمقتضياتها ، هو الذى صنع كل تلك الأعاجيب التى وعاها التاريخ ، تحقيقا لوعد الله :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾ [2]

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ . (٢) سورة النور : ٥٥ .

لقد كانت الأمة تعيش بكيانها كله فى عالم الواقع ، ولكنها تحلق فى عالم المثال!

واليوم . . ما أبعد الواقع عن المثال ! بل ما أبعد الواقع عن الحد الأدنى الذى لايجوز للأمة أن تهبط عنه!

اليوم تخبط الأمة على غير هدى فى ظلمات التيه . . إلا مارحم ربك !

ولقد ابتلى الله أمة سابقة بالتيه : ﴿ أربعين سنة يتيهون فى الأرض ﴾ [1] .

وكان سبب ذلك الابتلاء أن تلك الأمة تقاعست عن الأمر الربانى الموجّه إليها لدخول الأرض المقدسة :

﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين . ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولاترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم ، أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، فلاتأس على القوم الفاسقين﴾ [2] .

وربما كانت حكمة ذلك التيه أن القوم المستضعفين ، الذين تربوا على المذلة للفرعون ، لم يكونوا صالحين لحمل الأمانة المنوطة بهم على الوجه الذى يؤهلهم لتحقيق الرسالة الربانية ، وتحقيق منهج الله فى الأرض ، فابتلاهم الله بذلك التيه فى تلك الفترة المحددة ، التى انتهى فيها ذلك الجيل المستضعف المستذل ، وولد بعده جيل جديد . . ولد فى التيه . . فى المشقة . . فى المعاناة ، فكان أصلب عوداً وأقدر على تحمل المشاق . . فأذن الله له أن يدخل الأرض المقدسة ، ومكّن له فى الأرض .

والأمة الإسلامية اليوم تعيش فى التيه . ولكنه تيه معنوى لا كذلك التيه الحسّى الذى عاشت فيه بنو إسرائيل . تيه فى الأفكار والمشاعر والتصورات وأنماط السلوك .

---

(١) سورة المائدة : ٢٦ .　　(٢) سورة المائدة : ٢٠ ـ ٢٦ .

وكان هذا ابتلاء لها من الله حين تقاعست عن حمل الرسالة التى حمّلها الله إياها ، وجعل لها فيها خيريتها ، وحدد لها فيها مهمتها :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[1] .

وقد بدأ ذلك التيه منذ أكثر من قرن ، حين نحّت هذه الأمة شريعتها ، واستبدلت بها الشرائع التى أخبرها ربها أنها شرائع جاهلية لأنها لاتحكم بما أنزل الله ؛ واستبدلت بقيمها وأخلاقها وأنماط سلوكها قيم الغرب وأخلاقه وأنماط سلوكه ؛ وأدارت ظهرها لكتاب ربها وسنة رسوله ﷺ ، لتستورد الأفكار والنظم و«الأيدلوجيات » والمبادئ من المكان الذى توهمت فيه الرقى والتقدم والحضارة الحقيقية .

وكانت الفتنة بالغرب ـ بعد الانبهار الذى أصاب الأمة على أثر الهزيمة العسكرية أمامه ـ هى بداية التيه الذى ابتليت به الأمة فى محنتها .

لقد كانت الأمة قبل ذلك قد أصابها من السقام ما أصابها ، فانكمشت وانحسرت ، وقبعت فى داخل ذاتها ، تحتضن البقايا المتبقية لها من دينها ، وتحسب أنها على دين صحيح . ثم اشتد بها السقام حتى كادت تسقط من الإعياء ، وهى فى مكانها لاتريم ، ولكنها لاتفكر فى تغيير هويتها ، ولا تقبل ذلك لو دعيت إليه . ثم إذا هى فجأة ـ بعد هزيمتها العسكرية أمام الغرب ـ تنتفض مذعورة ولكن على غير هدى من ذلك الدين الهادى الذى عاشت به ماسلف من القرون ، وكان فيه مجدها وعزها وقوتها يوم أن كانت مستمسكة به على بصيرة . . وإذا هى ـ فى وهلتها ـ تدور فى التيه ، تبحث عن الهدى فى المكان الذى لاتجده فيه !

وأوغلت الأمة فى التيه مايزيد على قرن من الزمان . .

ثم جاءت الصحوة بحمد الله . . وبدأت طلائع الأمة تخرج من التيه لتعود إلى منبع الهدى الحقيقى ، ومنبع القوة الحقيقية ، الذى كانت قدغفلت عنه فترة من الوقت من قبل ، ثم هجرته فترة من الوقت وهى تدور فى التيه .

ولكن الصحوة ذاتها ماتزال فى أول الطريق ، ومايزال أمامها مشوار طويل لابد أن

---

(1) سورة البقرة : ١٤٣ .

تقطعه لتحقق أهدافها . وماتزال طوابير طويلة من الأمة تسير فى ظلمات التيه .

كم قدّر الله من الزمن لهذه الأمة تقضيه فى التيه ؟ ذلك غيب لايعلمه إلا الله . .

ولكنا نحسب أنه آن الأوان للأمة أن تخرج نفسها من ذلك التيه . فإن تكن الفتنة بالغرب هى التى أدخلتها فى التيه بادئ ذى بدء ، فنحسب أن الغرب قد انكشف اليوم على حقيقته بصورة يلمسها من كان له أدنى قدر من البصر بمجريات الأمور .

والوحشية الصليبية التى ارتكبها الصرب فى البوسنة والهرسك ، ثم السكوت المخزى الذى مارسه الغرب الصليبى كله على هذه الوحشية المسفّة ، لابد أن يكشفا لكل إنسان عن حقيقتين هائلتين : الأولى مدى الحقد الصليبى الكامن فى نفوس الغرب تجاه الإسلام والمسلمين ، والثانية مقدار الزيف فى تلك « الحضارة » التى زعمت أنها حضارة « إنسانية» تقوم على احترام « الآخر » وإعطائه حقه فى الوجود ، وحقه فى التعبير عن ذلك الوجود!

إن الغرب هو أكبر أكذوبة حضارية فى التاريخ . . برغم كل تقنياته ، وكل تقدمه العلمى والمادى ، ووصوله إلى القمر ووصوله إلى المريخ . . فكل ذلك ـ وحده ـ لايصنع حضارة ، وإن كان العلم وتقنياته من مستلزمات كل حضارة . . إنما الحضارة الحقة هى التى ترتفع « بالإنسان » فى جوهره الحقيقى . . فى كيانه كله لا فى جانب واحد منه . . فى « كافة » مجالات حياته كما قال الله للمؤمنين :

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾(١) .

« ادخلوا فى السلم كافة» . . أى بكافتكم جميعا ، وبكافة كل واحد منكم . . بكافة نفسه وعقله ومشاعره وضميره وأنماط سلوكه ، فإن أية جزئيةمن كيان الإنسان لاتدخل فى ذلك السلم الربانى فهى غذاء للشيطان المتربص ، يتلقفها ليجر الإنسان منها ، ليحاول أن يخرجه من السلم فى الدنيا ويدخله الجحيم فى الآخرة :

﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٨ . (٢) سورة الأعراف : ١٦ ـ ١٧ .

والوحشية الصليبية فى البوسنة والهرسك، والسكوت المخزى الذى مارسه الغرب تجاهها ، هما المحك الحقيقى لتلك « الحضارة» الزائفة . المحك الذى يكشف معدنها الحقيقى ، ويكشف كم تركت من جوانب حياتها غذاء للشيطان .

ومع ذلك فهى ليست الوحشية الوحيدة التى مارسها العالم « المتحضر» أو سكت عنها السكوت المخزى ، أو باركها سراً وعلانية ، فمذبحة طاجستان لاتقل وحشية ، ومذابح الهند وكشمير لاتقل وحشية ، ومذابح فلسطين لاتقل وحشية ، ومذابح الفلبين لاتقل وحشية . . وغيرها وغيرها فى كل بقاع الأرض . .

وقد آن للمخدوعين بالغرب من هذه الأمة أن يفيقوا ، وأن يخرجوا أنفسهم من ظلمات التيه .

وإذا كان الانبهار بالغرب ـ الذى نشأ أساسا من الخواء العقدى الذى عاشته الأمة فى فترتها الأخيرة ـ هو بداية التيه ، فليكن انكشاف الغرب على حقيقته هو بداية التوجه للخروج من التيه لمن كان مايزال يسير فيه . . ولن يخرج الإنسان من التيه حقيقة حتى يدخل بكافته فى السلم الربانى . . فى حقيقة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

والنداء موجّه إلى الأمة كلها للخروج من التيه والعودة إلى الطريق . . ولكنه موجّه بصفة خاصة إلى شباب الصحوة ، فهم الرواد الذين يدلون الأمة على الطريق ، وييسرون لها العودة إليه ، والمسير فيه :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [1] .

ولقد كتبت هذه الصفحات لأبين فى إيجاز شديد كيف دخلت الأمة فى التيه ، والحجم الحقيقى لذلك التيه الذى شمل كل جوانب الحياة : الروحية والفكرية والخلقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فى فترة من الفترات . ثم الدور الذى قامت به الصحوة المباركة حتى هذه اللحظة على الرغم من كل سلبياتها وتعثراتها ، ثم صورة الغد المأمول بإذن الله ، حين تستكمل الصحوة نضجها ، وتستكمل الأمة خروجها من ظلمات التيه ، فيعود لها التمكن فى الأرض بحسب وعد الله الدائم :

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣ .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا﴾ (١) .

والله المسئول أن يبصّر الأمة بالمخرج الحقيقى من التيه ،وبالسبيل الحق، والمنهج الصحيح للسير فيه :

﴿ قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (٢) .

محمد قطب

(١) سورة النور : ٥٥ .
(٢) سورة يوسف : ١٠٨ .

كيف دخلنا التيـه ؟

إن الحرب الصليبية التى بلغت ذروتها فى البوسنة والهرسك فى أيامنا الأخيرة، قد بدأت فى الحقيقة منذ عدة قرون . . نستطيع أن نقول بشىء من التحديد إنها بدأت بطرد المسلمين من الأندلس . وقد سقطت آخر دويلة إسلامية فى الأندلس عام ١٤٩٢م[1]، بعد أن عملت محاكم التفتيش بكل فظائعها لإبادة المسلمين ، والقضاء الكامل على الإسلام فى تلك البقاع. ثم أمر البابا بمتابعة المسلمين خارج الأندلس ، وفرض النصرانية عليهم بالسيف إن لم يستجيبوا لدعوة التنصير . وكانت الرحلات التى قام بها فاسكو داجاما وماجلان وغيرهما رحلات استكشافية ، لكشف نقاط الضعف التى يمكن عن طريقها اختراق العالم الإسلامى توطئة لغزوه والاستيلاء عليه ، وقد اضطرت كلها أن تسير فى اتجاه مغاير للحملات الصليبية الأولى بسبب وجود الدولة العثمانية بقوتها الرهيبة فى الشرق ، وتوغلها الكاسح فى شرق أوربا ،فكان على الحملة الجديدة أن تدور حول أفريقيا ، وتحاول غزو الأطراف البعيدة أولا قبل أن تتجه إلى قلب العالم الإسلامى، وبالذات إلى بيت المقدس ، الذى انهزمت عنده الحملات الصليبية الأولى .وفى هذه المرة لم يكن بيت المقدس هدفا للنصارى وحدهم ، بل اشترك اليهود معهم ، ولكن لحسابهم الخاص !

وشهد القرنان الثانى عشر والثالث عشر الهجريان (الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديان) تركيزا شديدا فى الحملة الصليبية ، انتهى بالاستيلاء على معظم بلاد العالم

---

(١) احتفلت أسبانيا فى عام (١٩٩٢م) بمرور خمسمائة سنة على طرد المسلمين من الأندلس وبمناسبة هذه الذكرى بالذات اختيرت مدريد مكانا « للمفاوضات » بين العرب واليهود فى قضية فلسطين . . أى قضية طرد المسلمين من الأندلس الثانية ! ووافق العرب !

الإسلامى ، بعد معارك عنيفة بين المسلمين والصليبيين ، انتهت كلها بهزيمة المسلمين أمام الغزو الكاسح ، وخضوع العالم الإسلامى للغزو النصرانى .

وبطبيعة الحال لم تحدث تلك الهزيمة اعتباطا ، وإنما كان لها أسباب .

والأسباب الظاهرة هى التخلف الذى أحاط بالمسلمين فى ميدان العلم، وميدان «التكنولوجيا» ، وميدان الاقتصاد ، وميدان التدريب الحربى والتسلح . وقد كانت هذه الأسباب كلها قمينة بإحداث الهزيمة العسكرية أمام الغرب الذى كان قد تقدم فى كل تلك الميادين بمقدار ماتخلف المسلمون ! ومعركة إمبابة الشهيرة بين المماليك ونابليون نموذج واضح لهذه الحقيقة ، فقد استغرقت المعركة كلها عشرين دقيقة ! ولم يكن ينقص المماليك الشجاعة الحربية ولا الرغبة فى صد العدوان عن ملكهم ، ولكن مدافعهم المتخلفة التى تحتاج إلى فترة زمنية بعد كل طلقة حتى تبرد ويمكن حشوها بالبارود من جديد ، والتى يتناقص مداها كلما حميت ، لم تكن لتصمد أمام المدافع التى تتتابع طلقاتها بسرعة وقوة وتمكن ، ومن مدى أبعد مما تصل إليه مدافع المماليك .

ولكن الدراسة الواعية لتلك الفترة من التاريخ يجب ألا تقف عند الأسباب الظاهرة، فتفوتها عندئذ الحقيقة الكامنة وراء تلك الأسباب . إنما يجب أن تتعمق لترى الأسباب الحقيقية التى أدت إلى ذلك الانهيار .

وحين يقوم المؤرخ المسلم بدراسة هذه الفترة من التاريخ فسيكون له بالضرورة موقف مختلف عن المؤرخ الأوربى ، من ناحيتين اثنتين على الأقل .

الناحية الأولى أنه سيتتبع الروح الصليبية الدافعة إلى غزو العالم الإسلامى، التى يخفيها المؤرخ الغربى عامدا رغم وضوحها . فقد ظل الغرب يوحى إلينا أن غزوه الأخير للعالم الإسلامى لم يكن ذا صلة على الإطلاق بالروح الصليبية التى دعت إلى الحملات الصليبية القديمة ، إنما هو منبعث من أسباب اقتصادية بحتة ! فمرة سببه البحث عن التوابل! ومرة سببه البحث عن الخامات الرخيصة ! ومرة سببه البحث عن أسواق لتصريف فائض المنتجات التى يصنّعها الغرب ! مع أن فاسكو داجاما ـ الرائد الأول للغزو الصليبى الحديث ـ قال بعبارة صريحة حين وصل إلى جزر الهند الشرقية ـ بمعاونة الخرائط الإسلامية ، ومعاونة البحار المسلم ابن ماجد ـ قال : الآن طوقنا رقبة الإسلام ، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت !! كما أن ماجلان ـ وهو كذلك من الرواد

الأوائل لهذا الغزو ـ ألح على البابا أن يأذن له بقيادة حملة صليبية بهدف محدد ، هو ضم أراضى الفلبين تحت راية الصليب ، ولما أذن له البابا على تردد ـ لعدم ثقته بقدرته على إنجاح حملته ـ ذهب بالفعل إلى الفلبين ، ورفع الصليب على إحدى جزرها ، فقتله المسلمون هناك وقضوا على حملته [1] !

وقد كانت للغرب مصلحة ظاهرة فى إخفاء الوجه الصليبى للحملة الجديدة ، اتقاء لإثارة الروح الدينية عند المسلمين ، التى تبعث على « الجهاد المقدس » وهو أخطر مايخشاه الغزاة ـ صليبين كانوا أو صهيونيين أو عباد بقر أو عباد أصنام ـ وقد ذاق الغزاة بأسه بالفعل فى الهند والجزائر وغيرهما من البقاع .

كتب كرومر ـ المعتمد البريطانى فى مصر أول أيام الاحتلال ـ فى مذكراته المسماة «مصر الحديثة Modern Egypt » : « إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية (!) على رأس هذه البلاد هى تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس وإن كان من الواجب ـ منعا من إثارة الشكوك ـ ألا يعمل رسميا على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدّين الإسلامى ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك » !!

والهدف من هذا الكلام واضح . . إبعاد المسلمين عن الإسلام دون إشعارهم أن الهدف هو إبعادهم عن الإسلام ! وذلك منعا من إثارة الشكوك . . أى منعا من إثارة الروح الدينية عند المسلمين ، حين يتضح الوجه الصليبى على حقيقته!

ونفى الدافع الصليبى عن الغزو الصليبى الحديث كان يهدف إلى ذات الغاية التى قصد إليها كرومر ، وهى عدم إثارة روح الجهاد المقدس ضد الغزاة ، والسعى إلى ترويضهم بحيث يقبلون الأمر الواقع ، وحتى إن اتجهوا إلى مقاومته ، قاوموه بغير روح الجهاد المقدس التى يفزع منها الغزاة !

ولترويج هذه الفرية فى نفوس المسلمين فى البلاد المحتلة قال الغرب إنه ترك الدين منذ فترة ! ولم يعد الدين هو الذى يحركه ! إنما الذى يحركه هو «المصالح الاقتصادية »

---

(١) ومع ذلك ندرس نحن لأبنائنا أن هذه الرحلات كانت رحلات استكشافية « علمية» ! ونقول لأبنائنا إن «المتبربرين » لم يقدروا الروح العلمية التى دفعت ماجلان للقيام برحلته فقتلوه !!

فحسب ! ولاكت ألسن المسلمين هذه الفرية فى فترة التيه ، وروجها دعاة الغزو الفكرى ـ بوعى أو بغير وعى ـ ليثبطوا أى تحرك جهادى إسلامى ضد الغزاة !

نعم ! لقد نبذت أوربا دينها ، فلم تعد تتحرك به داخل بلادها . . ولكنها لم تنس قط الروح الصليبية الكامنة فى دمائها ، والتى تحركها دائما ضد الإسلام والمسلمين ! وهذه الحقيقة ـ حقيقة نبذ أوربا لدينها ، وبقاء الحقد الصليبى تجاه الإسلام مشتعلا رغم ذلك ـ قد أشار إليها المستشرق النمساوى « محمد أسد » فى كتابه الشهير « الإسلام على مفترق الطرق » الذى ألفه بعد أن أعلن إسلامه ، وحاول فيه تفسير هذه الظاهرة الغريبة التى قال إنه لم يحدث مثلها فى التاريخ ، فقال : إن هذا الحقد قد ولد فى نفوس الأوروبيين فى فترة طفولتهم الفكرية والحضارية ، فلم تستطع فترة النضج التالية أن تمحوه من نفوسهم ، لأن ماينطبع فى الطفولة يتبقى عالقا فى النفس !![1]

ولسنا نحن فى حاجة إلى شهادة محمد أسد ولاتفسيره ، وعندنا شهادة الله سبحانه وتعالى وتقريره :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[2] .

وعندنا مذبحة البوسـنة والهرسك شـهادة لاتحتمل التـأويل . فالمندوب البريطانى «أوين » الذى ليست له أى مصلحة مباشرة أو غير مباشرة فى منطقة البوسنة والهرسك يتكلم حين يتكلم كأنما بلسان الصرب ، بل يطلب للصرب أحيانا أكثر مما يطلبون هم لأنفسهم ، بل طالب فى أكثر من مرة بمعاقبة المسلمين لأنهم لم يتقبلوا اغتيال الصرب الوحشى لهم فى صمت ولاهتكهم لأعراضهم ، بل كانوا يدافعون عن أنفسهم بين الحين والحين !!

والأمر الثانى الذى يجب على المؤرخ المسلم إبرازه بينما المؤرخ الأوربى لايذكره على الإطلاق ، هو أن السبب الحقيقى وراء كل ألوان التخلف التى أحاطت بالمسلمين فى الفترة الأخيرة كان هو التخلف العقدى . . التخلف عن حقيقة لا إله إلا الله .

إن الضعف ليس من طبيعة هذا الدين ، وهو دين القوة والجهادوالتمكن ، الذى

---

(١) انظر كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » ترجمة عمر فروخ ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) سورة البقرة : ١٢٠ .

اكتسح فى سنوات معدودة الإمبراطورية الفارسية بأكملها ونصف الإمبراطورية الرومانيةالعتيدة ، والذى هزم التتار فى عنفوانهم وهزم الصليبيين فى حملاتهم القديمة ، واستقر فى معظم الأرض المعمورة فى وقته استقرار التمكن والرسوخ والنماء . إنما الضعف عنصر طارئ فى حياة المسلمين لم يتأت لهم وهم مستمسكون استمساكا حقيقيا بدينهم. وسواء كان سببه الترف الذى أصاب الحكام العثمانيين بعد أن استتب لهم الملك والغلبة على الأعداء ، أو حلقات الذكر الصوفى التى تستوعب طاقة المسلم الروحية فتصرفها عن الجهاد ، وتحولها إلى سبحات روحية أشبه بالخدر منها إلى الوعى الحىّ ، أو انتشار الخرافة والتعلق بالخوارق الموهومة والكرامات المنسوبة إلى المشايخ ، الأحياء منهم والأموات ، أو إهمال العلوم الكونية وإهمال عمارة الأرض والانصراف عن أسباب التمكن ، أو الاستبداد السياسى الذى يجعل الناس ينصرفون إلى خاصة أنفسهم ويتركون الانشغال بالقضايا العامة التى تقرر مصاير الأمة ، ويتركز « الدين » فى حسهم فى الشعائر التعبدية فحسب، أو تَحَوُّل الدين كله فى النهاية إلى تقاليد تُرْعَى لذاتها ولكنها خاوية من الروح . .

سواء كان السبب هذا أو ذاك أو ذلك فكلها ليست من طبيعة هذا الدين، ولاهى مستوحاة من نصوصه المنزلة أو سوابقه التاريخية حين كان مطبقا تطبيقا صحيحا فى واقع الحياة .

والمؤرخ الأوربى المدقق لن تفوته معرفة هذه الحقيقة :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ [(١)] .

ولكنه لن يظهره وإن عرفه وتيقن منه :

﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[(٢)] .

فإنه لو أظهره فكأنما سيوقظ المسلمين إلى حقيقة انحرافهم عن مصدر قوتهم الحقيقى، وسيدعوهم إلى محاولة تغيير واقعهم ، والعودة إلى حقيقة الإسلام التى لايمقت الغرب شيئا كمقته إياها ، ولايخاف شيئا كخوفه منها .

بل لقد عمد المؤرخ الأوربى ـ وتبعه من تبعه من « المسلمين » الغارقين فى التيه ـ إلى

---

(١)، (٢) سورة البقرة : ١٤٦ .

ماهو أسوأ من إخفاء تلك الحقيقة ، فزعم أن « الدين » ذاته كان هو السبب فى كل هذا البلاء! فى الضعف والتخلف والخرافة والجهل والاستخذاء والقعود! وأنه لابد من نبذ الدين ليتحرر الناس من الجهل والخرافة، ويزيلوا الأغلال التى تمنعهم من الانطلاق! وحرص ـ وحرصوا معه ـ على منع أية إشارة تنبه الناس إلى حقيقة بعدهم عن حقيقة الدين ، وأن الدين الحقيقى شىء آخر غير الذى يمارسونه باسم الدين !

حدثنى ذات مرة صديق كنت أعمل معه فى إدارة واحدة [١] ، أنه التقى بأحد المستشرقين أثناء مرور الأخير بالقاهرة فى أوائل الستينيات من هذا القرن الميلادى ، فسأله عن جملة أشياء تتعلق بالإسلام والمسلمين ومايدور من أفكار بينهم ، وفى أثناء الحديث سأله : هل تعرف فلانا ؟ (وذكر له اسمى) فأجابه بالإيجاب . فسأله : هل هو من خريجى الأزهر ؟ قال له: لا ! إنه من خريجى قسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة! فلم يخف عجبه ـ واستياءه كذلك ـ من أن ينشغل واحد من خريجى هذا القسم ـ الذى أنشئ ابتداء لتخريج « علمانيين » يتبعون طريقة التفكير الغربية ومنهج الغرب فى الحياة ـ أن ينشغل بأمور الإسلام ، ويكتب فى موضوعات دينية !

ثم راح المستشرق يكيل النقد لكتاباتى ، وخاصة كتاب « شبهات حول الإسلام »[٢] وكان أشد حنقه على أمر معين ، هو أننى أنتقد مادية الغرب ، وأهاجم حضارته المادية الخالية من الروح . وقال لصديقى حانقا : ماذا صنعتم أنتم بروحانيتكم ؟! لولا تقدمنا المادى ما استطعتم أنتم أن تعيشوا ! فحدثه الصديق ـ رحمه الله ـ أننى أقول بأن الإسلام ليس روحانية فحسب ، وإنما هو يجمع بين عالم المادة وعالم الروح ، ويدعو إلى بذل النشاط فى كلا المجالين فى آن واحد . فقال له : ولكن واقعكم خلاف ذلك ! فقال الصديق ـ يتابع حديثه عنى ـ « إنه يقول إن واقع المسلمين اليوم بعيد عن حقيقة الإسلام » ! فانتفض الرجل من كرسيه حنقا وغضبا وقال : هو يقول ذلك ؟! أين يقول هذا الكلام ؟! قال : فى كتاب له يسمى « هل نحن مسلمون » . فقال المستشرق وهو ينصرف فى عصبية ظاهرة : هذا أمر خطير!!

---

(١) إدارة الثقافة العامة بوزارة التعليم العالى بالقاهرة .

(٢) أثار هذا الكتاب بالذات حنق أكثرمن واحد من المستشرقين ، لأنه يرد على الشبهات التى حاولواجاهدين أن يصرفوا الناس بها عن التمسك بالإسلام ، ولأنه يكشف للناس عن مساوئ الحضارة الغربية التى ينادى بها أولئك المستشرقون بديلا من الإسلام .

أمر خطير أن يتنبه أحد ـ أو ينبه الناس ـ إلى أن حقيقة الإسلام غير مايمارس باسم الإسلام ، وأن الواقع السيئ الذى يعيشه المسلمون اليوم سببه البعد عن حقيقة الإسلام!

* * *

المؤرخ المسلم ـ فى تناوله لتاريخ تلك الفترة ـ عليه من إسلامه واجب لابد أن يؤديه ، هو أن يبين للناس السبب الحقيقى فيما حدث من هزيمة عسكرية أمام الغرب ، وأن يفسر لهم كذلك سبب الهزيمة الروحية التى تلت الهزيمة فى ميدان الحرب . .

فأما الهزيمة الحربية فقد كانت نتيجة طبيعية لترك الأخذ بالأسباب التى تؤدى إلى القوة . ولكن ترك الأخذ بالأسباب كان هو ذاته نتيجةً للخلل العقدى الذى أصاب المسلمين فجعلهم ينحرفون بالدين عن حقيقته ، ولايعملون بمقتضاه .

فالفكر الإرجائى الذى أخرج العمل من مسمى الإيمان ، وجعل الإيمان هو التصديق القلبى والإقرار اللسانى فحسب ، كان انحرافا متعلقا بالعقيدة، ومجافيا لمنهج السلف الصالح الذين قالوا إن الإيمان قول وعمل ، والذين كان فى حسهم أن العلم الذى لايصحبه عمل ليس علما حقيقيا ، وأن العمل هو الثمرة الحقيقية للعلم . وقد أدى هذا الانحراف العقدى إلى تصور للدين غير صحيح ، وسلوك بالدين غير صحيح ، فزاد تفلت الناس من التكاليف بغير حرج فى صدورهم ، لأنهم ـ فى وَهْم أنفسهم ـ مؤمنون صادقو الإيمان مهما تفلتوا ، ماداموا مصدقين بالقلب ، ومقرين باللسان !

والفكر الصوفى الذى أدى إلى تضخم « الشيخ » فى حس « المريد » حتى صار واسطة بينه وبين الله ، كان انحرافا متعلقا بالعقيدة ، ومجافيا لمنهج السلف الصالح ، الذين تعلموا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أنه لا وسطاء بين العبد والرب إلا العمل الصالح الذى يرضى الله عنه فيرضى عن صاحبه، وأن من أعظم القربات إلى الله الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والسعى إلى تقويم المجتمع إذا انحرف عن السبيل . . وكان من نتيجة هذا الانحراف العقدى ألوان من شرك العبادة من جهة ، وتعلق بالأوهام والخرافات من جهة ، وتركٌ للعمل الإيجابى الذى يجرى الله به التغيير فى الأرض بحسب سنته الجارية ، تطلعا إلى خارقة تتحقق على يد «ولىّ »من أولياء الله تنحل بها المشاكل بلا تعب ولا نصب ولا انشغال بال!

والإيمان المختل بعقيدة القضاء والقدر ، الذى يسقط مسئولية الإنسان عن أعماله حين يخطئ أو يقصر بدعوى أن مايصيبه هو قضاء وقدر لاحيلة له فيه ، ويدعو إلى الاستسلام السلبى لكل مايقع ، وعدم السعى إلى تغييره بدعوى أن العمل على التغيير هو بمثابة التمرد على قدر الله وعدم الرضا بقضائه، ويدعو إلى عدم الأخذ بالأسباب بدعوى أن هذا نقص فى الإيمان، ودليل على عدم التوكل على الله . . كل ذلك كان انحرافامتعلقا بالعقيدة ، ومجافيا لمنهج السلف الصالح الذين كانوا أصفى الناس إيمانا بالقضاء والقدر، ولكنهم كانوا يعلمون من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ أن الإيمان بالقضاء والقدر لايسقط مسئولية الإنسان عن عمله حين يخطئ أو يقصر ، ولايمنع السعى إلى التغيير تطلعا إلى قدر جديدمن عند الله ، وأن التوكل الصحيح لايمنع الأخذ بالأسباب ، وأن حتمية تحقق قدر الله ومشيئته لاتتنافى كذلك مع اتخاذ الأسباب .

ففى وقعة أحد قال الله للمسلمين إن ما أصابهم من الهزيمة هو من عند أنفسهم لمخالفتهم أمر الرسول ﷺ ، وهو فى الوقت ذاته قضاء وقدر :

﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا ؟! قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله . . ﴾[1] .

وحين وقعت الهزيمة لم يقعد رسول الله ﷺ عن السعى إلى تغيير الموقف، فأخذ المسلمين ـ بجراحاتهم ـ للقاء العدو ، فانصرف العدو بفضل الله وآثر الانسحاب دون قتال :

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم﴾[2] .

وتلقى الرسول ﷺ توجيها من ربه له وللأمة المسلمة من ورائه أن يعدّ العدة ثم يتوكل على الله :

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٥ ـ ١٦٦ .   (٢) سورة آل عمران : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾[1] .

والعزيمة تقتضى الإعداد وإلا فهى مجرد أمانىّ لاتغير شيئا من الواقع .

وقرر الله سبحانه وتعالى أن الذين كفروا لن يسبقوا الله ولن يعجزوه . وأن قدر الله بالتمكين لهذا الدين فى الأرض ماضٍ ونافذ . ومع ذلك أمر المسلمين بالإعداد واتخاذ الأسباب فى نفس السياق :

﴿ ولايحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لايعجزون . وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم ، الله يعلمهم . وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لاتظلمون ﴾[2] .

وقد أدى هذا الخلل العقدى فى عقيدة القضاء والقدر إلى تواكل سلبى بدلا من التوكل الحق ، وإلى إهمال اتخاذ الأسباب ـ ومن بينها أسباب القوة التى أمر الله بإعدادها لإرهاب عدو الله ـ وإلى انتشار الفقر والمرض والعجز، والقعود فى الوقت ذاته عن محاولة التغيير .

والتصور المختل لطبيعة العلاقة بين الدنيا والآخرة ،وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة ، كان انحرافا عن حقيقة الدين ، وعن منهج السلف الصالح الذين فهموا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى جزء من العبادة المطلوبة من الإنسان، وأن العمل للآخرة لايتنافى مع السعى فى الأرض :

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾[3] .

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولاتبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لايحب المفسدين ﴾[4].

وقد نهى الرسول ﷺ القوم الذين زعموا أنهم يعملون للآخرة بأن يصوموا الدهر ولايفطروا أو يقوموا الليل ولايناموا ،أو يعتزلوا النساء فلا يتزوجوا ، فقال لهم ﷺ : ألا

(١) سورة آل عمران : ١٥٩ .
(٢) سورة الأنفال : ٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) سورة الملك : ١٥ .
(٤) سورة القصص : ٧٧ .

إنى أعبدكم لله وأخشاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] .

وقد أدى هذا الانحراف فى تصور مقتضيات لا إله إلا الله إلى إهمال العلم بالطب والفلك والكيمياء والفيزياء والرياضيات والجغرافيا وغيرها من العلوم لأنهامتعلقة بالأرض ، . وبالحياة الدنيا ، فتخلف المسلمون فى جميع الميادين .

من هنا يظهر جليا أن التخلف العلمى و«التكنولوجى » والمادى . . إلخ، الذى كان سببا فى الهزيمة العسكرية أمام الغرب قد نشأ أساسا من التخلف العقدى الذى تزايد فى حياة المسلمين جيلا بعد جيل ، وتراكم حتى غشّى على العقيدة الصحيحة فلم تعد تتبين من بين الركام ، ولم تعد تعطى شحنتها الحية فى حياة المسلمين .

ولكن القضية لا تنتهى مع المؤرخ المسلم عند هذا الحد .

فهناك قضية أخرى لاتقل عنها أهمية ، ولاتقل عنهاخفاء كذلك فى حس الذين يحصرون رؤيتهم فى الأسباب الظاهرة ولا يتعمقون وراءها إلى السبب الحقيقى .

وقعت الهزيمة العسكرية فتلتها فى نفوس المسلمين هزيمة روحية ، هى الأولى بالنسبة لهم فى التاريخ .

وقد قلنا فى أكثر من كتاب[2] إن الهزيمة العسكرية وحدها لم تكن لتحدث فى نفوس المسلمين ذلك الأثر الهائل الذى أحدثته فى المرة الأخيرة حين انهزمت جيوش المسلمين أمام الغرب .

حقيقة إن المسلمين فوجئوا مفاجأة حادة ـ بعد الهزيمة ـ بالفارق الهائل بينهم وبين الغرب الذى هزمهم ، فى العلم وفى « التكنولوجيا » وفى التقدم المادى والحضارى . . وأن هذا كان له أثره فى الهزيمة النفسية التى أصابت المسلمين .

ولكن الهزيمة العسكرية وحدها ، وإدراك المسلمين للفارق الهائل بينهم وبين أعدائهم فى الأسباب المادية ، لم يكونا ليحدثا هذا التحول الهائل الذى حدث فى حياة المسلمين ، لولا الخواء الروحى والعقدى الذى كان فى حياتهم قبل وقوع الصدام .

---

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب « واقعنا المعاصر» .

وقعت الهزيمة العسكرية من قبل فلم تغير شيئا فى تصورات المسلمين وأفكارهم وسلوكهم وعقائدهم . .

وقعت أول هزيمة يوم أحد ، فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[1] . وكانوا مؤمنين بالفعل ، فوعوا الدرس ، وأفاقوا من هزيمتهم ، وعلموا أنهم الأعلون بإيمانهم مهما حدث لهم من هزيمة مؤقتة أمام عدوهم . فلم يهنوا بعد ذلك فى مواجهتين عظيمتين خطيرتين وقعتا بينهم وبين التتار مرة ، وبينهم وبين الصليبيين مرة . وقد كانت الهزيمة أمام التتار ساحقة . .

اكتسح التتار بغداد ، وأزالوا الخلافة العباسية ، وأذلوا المسلمين إلى حد لايتصور . فكان التترى يخرج من بيته وليس معه سلاحه ، فيلقى المسلم فى الطريق ، فيقول له : ابق هنا حتى أحضر السيف لأقتلك ، فيقف المسلم صاغرا مستسلما حتى يعود التترى بسيفه فيقتله . . وليس بعد ذلك إذلال !

ولكن أرواحهم لم تذل !

لم ينظروا إلى التتار نظرة إكبار ! لم يعتقدوا أن التتار خير منهم بسبب أنهم هم الغالبون ! إنما كانوا فى حسهم برابرة همجا متوحشين ، وقبل ذلك كله وثنيين لايعرفون الله ، ولايدينون دين الحق .

وانهزم المسلمون أمام الصليبيين فى مبدإ الأمر ، وأقام الصليبيون دويلات لهم فى بعض بقاع العالم الإسلامى استمرت ردحًا من الزمن يتسلطون فيها على المسلمين ويهينونهم ويذلونهم . .

ولكن أرواحهم لم تذل !

لم ينظروا إلى الصليبيين نظرة إكبار ! لم يعتقدوا أن الصليبيين خير منهم بسبب أنهم هم الغالبون! إنما كانوا فى حسهم هم المشركين عبّاد الصليب ، وفوق ذلك كانوا يقولون عنهم إنهم دياييث لا أعراض لهم ، بسبب التحلل الأخلاقى الفاشى فى حياتهم ، وضعف الحمية فيهم لأعراضهم . . ومن أجل ذلك كانوا يحتقرونهم .

ثم جاء النصر من عند الله حين توجه المسلمون بالعقيدة الصحيحة إلى الله ، واتخذوا

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

الأسباب ، فكانت صيحة « وا إسلاماه» على لسان قطز ، وهجمته الصادقة على التتار فى عين جالوت تغييرا فى صفحة التاريخ ، فلم ينتصر المسلمون فحسب ، بل بدأ التتار يدخلون فى الإسلام بعد هزيمتهم أمام المسلمين . كما كان توجه صلاح الدين إلى إصلاح عقيدة الناس ، واتخاذ الأسباب ، إيذانا بالنصر الحاسم الذى أعاد بيت المقدس ، وصد الصليبيين عن الشرق الإسلامى عدة قرون . ثم تعدى الأمر آثاره المحلية ، إذا بدأت أوربا نهضتها مستمدة من الحضارة الإسلامية بعد هزيمتها أمام المسلمين! [1] .

فإذا نظرنا من ناحية أخرى إلى قضية الفارق « الحضارى » بين المسلمين وأعدائهم ، فقد كان الفارق هائلا جدا لصالح الأعداء حين التقى المسلمون مع الفرس ومع الرومان، وهم صفر اليدين من أسباب الحضارة المادية أو يكادون . .

ولكن ذلك الفارق الهائل لم يستوقفهم لحظة واحدة ليفكروا فيه ، ولا كان له فى حسّهم وزن . . أى وزن !

وانظر إلى ربعى بن عامر وهو يدخل بكل عزة الإيمان على رستم فى أبهته وطنافسه وبذخه ، فينظر إلى ذلك كله باحتقار بالغ ، ويتعمد إعلان ازدرائه له وتحقيره ، فيخرّق بسن رمحه سجاجيدهم ،ويربط حماره القصير الأرجل فى بعض ما يعتزون به من فراشهم ، ثم يقول لرستم حين سأله: ماالذى أتى بكم إلى بلادنا؟ : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة . . »

أى عزة بالإيمان إزاء الاعتزاز الكاذب بكل « الحضارة المادية » وكل متاع الأرض !

ولكن موقف المسلمين من الهجمة الصليبية الأخيرة لم يكن كذلك . . لم يكن موقف الاعتزاز بالعقيدة الصحيحة ، ولا الاعتزاز بالإيمان . . إنما كان الذلة النفسية والانكسار . .

---

(١) هذه النقطة لم تأخذ حظها من الدراسة العلمية الواجبة لها ، وهى تأثير هزيمة الصليبيين أمام المسلمين فى نهضة أوربا ، وقيام هذه النهضة على أسس مستمدة من الإسلام . والسبب أن الأوربيين نادرا مايعترفون بذلك ، وأن المسلمين فى هزيمتهم الحالية لايصدقون أن الإسلام كان له ذلك الأثر فى حياة أوربا ! وهى قضية جديرة بدراسة علمية موسعة .

أو قل : هو الانبهار . .

لأول مرة فى تاريخهم ينظرون إلى أعدائهم على أنهم أعلى منهم . . لافى مجالات العلم و « التكنولوجيا » وآلات الحرب ، فذلك ظاهر . . ولكن فى الأفكار . . والنظم . . والعقائد . . وأنماط السلوك . .

لم يكن السبب هو الهزيمة العسكرية ، ولا فارق الحضارة المادية . .

إنما كان الخلل فى الإيمان . . فى موطن العزة والاستعلاء . .

﴿ . . وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾[1].

كان السبب هو الخواء العقدى الذى وقعت فيه الأمة عدة قرون .

لذلك أدت الهزيمة العسكرية إلى الانبهار . .

وحين بدأ الانبهار . . دخلت الأمة فى التيه . .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ .

حجم التيـــه

كان حجم التيه هائلا جدا . . أكبر بكثير مما يتصور أكثر الناس . .

ويكاد لايوجد جانب واحدمن حياة الأمة لم يتأثر بالتيه . . كأنما انقلبت فى نصف قرن أو يزيد ، أمة أخرى غير التى كانت من قبل ! انقلبت فى كل شىء . . فى تصوراتها وأفكارها ومشاعرها وأنماط سلوكها . . فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والأدب و«الفن» . . فى كل شىء !

وكانت الأمة ـ ولاشك ـ تشعر بالانقلاب . . فقد كانت المفارقة حادة بين ماكانت عليه وماصارت إليه فى تلك الفترة القصيرة من الزمن . . ولكن الكارثة أنها ـ وهى فى التيه ـ كانت تظن أنها تنقلب إلى الأفضل ! وتنظر إلى نفسها وهى تنسلخ من دينها وتقاليدها وموروثاتها وتصوراتها ،على أنها قد بدأت ـ الآن ـ تخطو أولى خطواتها على الطريق المستقيم !

وهنا نقطة يجب أن يتبينها المؤرخ المسلم ويبينها للناس : أن الأمة قبل هذا الانقلاب لم تكن تسير على الطريق المستقيم ! لقد كانت قد حادت كثيرا عن الطريق وهى تظن أنها ماتزال سائرة فيه ! ولكن الذى يجب أن ندركه جيدا أن التوجه الجديد لم يكن إلى الطريق المستقيم حقا ، إنما كان انحرافا جديدا عن الجادة ،ولكنه كان أخطر بكثير من الأول . فقد كان الأول ـ على كل مافيه من انحراف ـ تزييفا لواقع أصيل ، فمن السهل ـ حين تكشف الزيف ـ أن تعود إلى الأصل الذى خدعك الزيف عنه . أما الآخر فقد كان فى اتجاه مضاد ، وكان أخطر مافيه أنه يوسوس لك على الدوام أن لا ترجع أبدا إلى الطريق الأصيل . . بزعم أنه منبع الداء . . وأن البعد عنه هو وحده الدواء !!

لم يكن الذى غادره المسلمون ليدخلوا فى التيه هو حقيقة الإسلام . .

فالتواكل والسلبية والجهل والخرافة والخمول والضعف والقعود عن اتخاذ الأسباب . . ليس من الإسلام .

وتحقير المرأة وحبسها فى ظلمات الجهل والخرافة وتحجيم دورها فى الحياة وحصره فى الحمل والولادة والإرضاع . . ليس من الإسلام .

واستبداد الحكام بالسلطة ، وزجر الرعية عن التدخل فى الشئون العامة ، فضلا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ليس من الإسلام .

وقعود الفقهاء عن النظر فيما جد فى حياة الناس من أمور ، فضلا عن تحريم الاجتهاد واعتباره بدعة ضارة خطرة مخيفة . . ليس من الإسلام .

وعشرات غيرها من الأمور التى كانت سائدة فى المجتمع . . كلها دخيلة، وكلها انحراف عن مقتضيات لا إله إلا الله . .

ولكن العلاج لم يكن نبذ هذا الدين . . إنما كان هو الرجوع إليه ، ونبذ ماوقع فى حياة الناس من انحراف

كان الأمر فى حاجة إلى العالم الربانى المجدد ، الذى يجدد لهذه الأمة أمر دينها ، فيكشف الغاشية التى غشّت على بصيرتها ، ويردها إلى الطريق الصحيح . .

وشتان بين ماحدث بالفعل وبين ما كانت الأمة فى حاجة إليه فى ذلك الحين . .

ولقد كان العدو المتربص يستشعر أن اليقظة يمكن أن تحدث . . فقد كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية نذيرا شديدا لهم أن الأمة يمكن أن تصحو وتنفض عنها ماوقعت فيه من البعد عن حقيقة الدين . . وعندئذ ماذا يكون من أمر الحملة الصليبية ؟ وكيف يواجه الصليبيون الجدد أمة مجدّدة الإيمان كأمه صلاح الدين ؟! .

لذلك فقد حاولوا كبت الحركة الوهابية فى مهدها ، وأغروا بها محمد على وأبناءه ليحاول القضاء عليها . . وأسرعوا فى الوقت ذاته فى دفع الأمة إلى التيه . . لكى تزداد بعدا عن طريق النجاة . .

وكان الواقع المشوّه الذى يعيشه المسلمون ـ بِوَهْم أنه واقع إسلامى ـ كان هو ذاته وقودا للانحراف الجديد . فقد قيل للناس ـ كذبا ـ هذا دينكم قد أوردكم المهالك ،

وأوصلكم إلى ما أنتم فيه من الهوان والذل . . وليس أمامكم إلا أحد خيارين إما أن تظلوا متمسكين بالدين ، وتستمروا فيما أنتم فيه من التخلف والضعف ، . وإما أن تنبذوا الدين وتسلكوا الطريق الذى سلكته أوربا قبلكم بقرنين من الزمان . . فتقدمت عليكم قرنين من الزمان!

وكانت مساوئ الحكم العثمانى كذلك وقودا للانحراف الجديد . .

لم يكن الحكم العثمانى كله مساوئ كما أوهِم الناس ـ عمدا ـ فى ذلك الحين ، لينفروهم من حكم الإسلام ، وييسروا عليهم الانزلاق إلى الحكم بغير شريعة الله !

ويكفى العثمانيين ـ عند الله وعند الناس ـ أنهم صدوا الزحف الصليبى أربعة قرون ، وأنهم إلى آخر لحظة من حياتهم لم يفرطوا فى فلسطين ، بل جاهدوا مستميتين لصد الزحف الصهيونى إليها ، الذى تؤيده وتباركه الصليبية العالمية بكل مافى وسعها من قوة ، وكل ماتملكه من دهاء . .

ولكن كانت لهم مساوئ ولاشك . .

وكان فى حكمهم مظالم كثيرة . .

وقيل للناس : إنه هكذا الحكم الذى يحكم باسم الدين . إنه استبدادى بطبعه ! ولايمكن أن يكون إلا كذلك ! انظروا كيف كان الحكم الدينى فى أوربا يوم كان . . كان ظلما كله وتعسفا وطغيانا وهضما لحقوق «الشعب»، ولم تفق منه أوربا إلا حين تخلصت من سلطان الدين، وحصرته فى شئون العبادة ، وأبعدته عن الهيمنة على شئون الحياة . .

وأنتم . . ؟!

لاطريق لكم إلا ذات الطريق . . احصروا الدين ـ على الأكثر ـ فى شئون العبادة ، ونحّوه عن كل مجال آخر ، وعن مجال السياسة بصفة خاصة، ولا ضير عليكم . . فستظلون « مسلمين ! » ولكنكم ستتحررون . . وستتقدمون . . وستتحضرون !

وفى التيه لم تتبين الأمة ـ إلا مارحم ربك ـ مافى هذا الكلام من زيف وبعد عن الحقيقة .

فالدين الذى نبذته أوربا لتتقدم وتتحضر لم يكن هو الدين المنزل من عند الله ، إنما كان صناعة بشرية فاسدة ، أفسدته تصورات البشر وأهواؤهم وأوهامهم . وكان الخطأ

فى حياة أوربا هو اتباع ذلك الدين الفاسد ، وعدم الاهتداء إلى مافيه من فساد ، وتقبل مايقوله آباء الكنيسة على أنه قول مقدس واجب الاتباع ، على اعتبار أنهم خلفاء بطرس الذى منحه «الرب» ـ يقصدون عيسى عليه السلام ـ حق التحليل والتحريم ، كما منحه العصمة كذلك [1] !

﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون﴾[2] .

ولكن الدين الذى يدين به المسلمون ـ و إن انحرفوا فى ممارسته ـ هو الدين الحق المنزل من عند الله ، المحفوظة أصوله فى الكتاب والسنة بحفظ الله له :

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون ﴾[3] .

وكان الخطأ فى حياة المسلمين هو انحرافهم فى ممارسة هذا الدين ، إما بالبدع والمعاصى ، و إما بالتفلت من التكاليف ، و إما بأفكار دخيلة كالفكر الإرجائى أو الفكر الصوفى المنحرف .

لذلك يختلف العلاج فى الحالتين . فالعلاج فى حالة أوربا هو نبذ ذلك الدين الفاسد ، والاستعاضة عنه بالدين الصحيح . والعلاج فى حالة المسلمين هو نبذ الانحرافات التى طرأت فى سلوكهم ، والعودة إلى التمسك الصحيح بالدين .

وما أبعد هذا العلاج عن ذاك !

فأما أوربا فقد اخذت نصف العلاج اللازم لها وأبت أن تأخذ النصف الآخر ، فخرجت من دينها الفاسد ولم تدخل فى الدين الحق ، فنشأت عن ذلك الأزمة التى يعانيها الغرب اليوم ، وتعانيها معه البشرية المغلوبة على أمرها تحت ضغط الغرب الساحق : وهى غلبة الروح المادية وانسحاق الجانب الروحى من الإنسان تحت ضغط المادة أو ـ بعبارة أخرى ـ التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى بغير قيم ولامبادئ ولا أخلاق !

---

(١) يزعمون ـ بغير سند حقيقى ـ أن عيسى عليه السلام قال لحواريه بطرس : أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة تبنى كنيستى ، وماربطته فى الأرض لايحل فى السماء ، وماحللته فى الأرض لايربط فى السماء !! وهو قول لايمكن أن يصدر عن نبى من أنبياء الله .

(٢) سورة التوبة : ٣١ .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

أما الأمة الإسلامية ـ فى التيه ـ فلم تأخذ نصف العلاج ولا ربعه ولا ثمنه . . إنما تناولت السموم التى قدمها لها الغرب ، فتلقفتها فرحة بها ، متوهمة أنها طريق الخلاص!

فبدلا من أن تعود إلى حقيقة الدين التى كانت قد انحرفت عنها ، نبذت دينها ـ أو كادت ـ وفى الوقت ذاته لم تتخذ الأسباب التى اتخذها الغرب فى تقدمه العلمى والمادى. فلم تأخذ من العلم إلا قشوره ، وتقاعست عن الجدّ الواجب له ، والجلد والمثابرة والصبر فى تحصيله، والتنظيم الفائق فى شئون الحياة ، الذى يجعل الجهد مثمرا، ويجمّع حصيلة الجهد فلا تتبدد ولاتتناثر !

وأخذت بدلا من ذلك مافى حياة الغرب من فساد ! فتراكم الفساد عندها أضعافا مضاعفة ! فلاهى عالجت أمراضها التى ورثتها من فترة التخلف العقدى ، الذى أنشأ من قبل التخلف الحربى والسياسى والعلمى والمادى . . إلخ ، وأضافت أمراضا جديدة دخيلة على البيئة الإسلامية ،من تحلل خلقى، وخمر وميسر ولهو وتبجح بالمعاصى الكبائر. .

كذلك لم تدرك الأمة ـ وهى فى التيه ـ مدى الفارق بين العلاج الذى كان يجب أن تتخذه إزاء مظالم الحكم العثمانى ، والعلاج البديل الذى قدمه لها الغرب . .

لقد كان الخطأ فى الحكم العثمانى هو الاستبداد السياسى . . وكان العلاج الذى يجب أن يقدّم للأمة هو التربية على الروح الإسلامية الصحيحة فى السياسة ، وهى السمع والطاعة للحاكم فيما يطيع فيه الحاكمُ الله ورسوله ، ومراقبة الأمة لأعمال الحاكم حتى ينضبط فى تصرفاته بضوابط الشريعة . كما يتبين فى ذلك المثال الفذ ، حين وقف عمر رضى الله عنه يخطب الناس فيقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فيقول له سلمان الفارسى رضى الله عنه : لاسمع لك اليوم علينا ولاطاعة ! فيقول عمر : ولمه ؟ فيقول : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به ، وأنت رجل طوال لايكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين ! فلما تبين لسلمان أن البرد الزائد هو برد عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، أعطاه لأبيه ليكمل به كسوته ، قال لعمر : الآن مر ! نسمع ونطع !

وصحيح أن الأمة قد فرطت فى حقها الربانى فى مراقبة أعمال الحاكم ، والنصح له ،

وأطره على الحق أطرا كما أمر رسول الله ﷺ : « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا »[1] .

وأن هذا التفريط قديم فى حياة الأمة من زمن بنى أمية ، وأن الاستبداد العثمانى لم يكن بدء الانحراف ، وإنما كان مجرد امتداد تاريخى له . . ولكن الواجب يظل واجبا مهما فرطت فيه الأمة ، ولايسقط بالتقادم مهما طال عليه العهد . . والإصلاح الواجب يظل هو هو لايتغير . . ينتظر العالم الربانى المجدد المجاهد ، الذى يأخذ على عاتقه إعادة الأمة إلى الأصل الذى انحرفت عنه ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بحياته كما فعل أكثر من عالم من علماء الإسلام خلال التاريخ .

ولكن العلاج الذى اتخذته الأمة ـ فى التيه ـ كان مخالفا تماما لهذا الأمر . .

كان العلاج الذى اتخذته هو تنحية الشريعة الإسلامية ، واستجلاب «الدساتير » من الغرب ، من أجل إقامة « دولة حديثة » كالدول الأوربية الحديثة !

ما أبعد المدى بين الطريقين !

لم تدرك الأمة ـ فى التيه ـ أبعاد القضية على حقيقتها . .

لم يكن الخطأ فى حياة الأمة الإسلامية ناشئا من الشريعة ، حتى يكون العلاج هو إلغاء الشريعة ! إنما كان ناشئا من عدم تمسك الأمة بالحقوق التى كفلتها لها الشريعة الربانية . . وعلاج ذلك لايكون باستيراد أحد النظم الأوربية ومحاولة تطبيقه . فسوف نرى أن استيراد النظم الأوربية لم يحل مشكلة واحدة من مشاكل المسلمين !

لقد كانت مشكلة أوربا فى قرونها الوسطى المظلمة ناشئة من الحكم «الثيوقراطى»، أى حكم رجال الدين ، الذين استبدوا بالناس نتيجة تسلطهم الروحى على الناس فى ذلك الدين الفاسد ، الذى انقلب كهّانه إلى وسطاء بين العبد والرب ، بسبب تحريف العقيدة ، وإضفاء القداسة على من لاتجوز لهم القداسة من البشر ، وتنحية الشريعة كذلك ، وتقديم الدين عقيدة ـ محرّفة ـ بغير شريعة !

هذا السوء كله لم يكن له علاج فى نظر أوربا إلا فصل الدين عن السياسة ، أى ـ فى الحقيقة ـ إبعاد نفوذ رجال الدين عن أمور السياسة ، وجعل السياسة «علمانية » لا دخل

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

فيها للدين . . وربما لم يكن أمام أوربا إلا ذلك الحل ، مادامت لم تعرف الدين الربانى، ولم تمارس فى حياتها عدالة مستمدة من دين الله .

ولكن أوربا ـ حين خلعت نير رجال الدين عن السياسة ـ ابتليت باستبداد الملوك والأباطرة الذين نادوا بفصل الدين عن السياسة ليستقلوا هم بالسلطة الزمنية ، ويشبعوا نهمهم إلى السلطة بغير منافسة من آباء الكنيسة . وهذا الاستبداد هو الذى قامت الثورات المتتالية فى أوربا لاجتثاث جذوره ـ بدءاً بالثورة الفرنسية ـ وكانت الديمقراطية هى الحل الذى اهتدت إليه أوربا لتأسيس سلطة الأمة فى مراقبة أعمال الحاكم ، وجعل التشريع حقا للأمة لاينفرد به الحكام .

ونصرف النظر مؤقتا عما لايمكن صرف النظر عنه ، من دخول اليهود فى اللعبة ، وتوجيههم « مكاسب الديمقراطية » لحسابهم الخاص ، أى لحساب الرأسمالية التى كانوا هم كهنتها ودهاقنتها منذ بدء الثورة الصناعية ، ولحساب الفساد الخلقى الذى كانوا تواقين إلى نشره فى المجتمع الأوربى ، ليركبوا ظهور « الأمميين » ويسخروهم لخدمتهم [١] ، وذلك من خلال مبدئهم الخطير الذى جعلوه شعارا للثورة Laissez Faire, Laissez Passer : دعه يعمل (مايشاء) ، دعه يمر (من حيث يشاء) أى حرية الرأسمالى فى أن يربح كما يشاء ،وحرية الجماهير فى الإلحاد والفساد الخلقى باسم الحرية الشخصية .

بصرف النظر ـ مؤقتا ـ عن هذا كله ، فقد كان فصل الدين عن السياسة هو « الحل الأوربى » لأزمة أوربية بحتة ، نشأت ابتداء من كون أوربا لاتملك دينا سماويا ترجع إليه ، إنما تملك عقيدة ـ محرفة ـ بغير شريعة .

أما المسلمون فقد كانت مشكلتهم بعيدة كل البعد عن هذا المجرى ، وإن وجد التشابه الظاهرى فى استبداد الحكام بسلطانهم السياسى . . فإعطاؤهم ذات الجرعة التى استخدمتها أوربا لم يحل مشكلتهم، بل أضاف إليهم مشاكل جديدة ! كالطبيب

---

(١) يقول اليهود فى تلمودهم « الأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار ، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حمارا آخر » فتلك نظرتهم إلى « الأمميين » أى كل الأمم من غير اليهود ، والديمقراطية الرأسمالية هى إحدى وسائلهم التى يستخدمونها لتسخير الأمميين لمصالحهم . اقرأ إن شئت فصل «الديمقراطية» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .

الجاهل يأخذ عرضا واحدا من أعراض المرض ـ تشترك فيه أمراض كثيرة ـ فيعطى ـ مثلا جرعة من دواء الحمى السحائية لمريض بالتيفود ، لمجرد وجود الحرارة العالية فى بدنه ! فلا العلاج يشفيه من مرضه ، وقد يضعف مقاومته فتزداد حالته سوءا على سوء!

مشكلة المسلمين ـ كما أسلفنا ـ كانت تفريطهم فى الحقوق السياسية التى كفلتها لهم الشريعة الربانية [١] ، التى أقامت خير نظم الأرض السياسية حين طبقت تطبيقا صحيحا ، فى فترة الخلافة الراشدة .

والعلاج ـ الذى يجب أن يقدمه العالم الربانى المجدد المجاهد ـ هو رد الأمة ـ عن طريق التربية والتوجيه ـ إلى الروح التى عاش بها المسلمون الأوائل ، ومارسوا بها الدين بتمامه فى عالم الواقع .

أما استيراد الديمقراطية أو غيرها من النظم من الغرب [٢] ، مع تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ، فما الذى أفضى إليه فى واقع الأمة ؟

لقد أفضى إلى مجموعة من الشرور ماتزال الأمة تعانى نتائجها ، وستظل كذلك حتى تفئ إلى أمر الله ، فتصلح أخطاءها بالعلاج الربانى الذى أنزله الله هدى للناس وشفاء لما فى الصدور .

فأما تنحية الشريعة فسنتكلم بعد هنيهة عن المفاسد التى نجمت عنها فى مجتمع التيه .

وأما الديمقراطية فقد أفضت فى التطبيق الواقعى إلى مهازل مضحكة ، وإلى مآسٍ كثيرة فى حياة الناس .

حين ثار المصريون ثورتهم «الوطنية» [٣] فى عام ١٩١٩ كان « تشرشل » الداهية البريطانى الكبير وزيرا فى حكومة المحافظين يومئذ ، فسمع أخبار الثورة فسأل : ماذا

---

(١) مما يلفت النظر أن ماتسميه الديمقراطية « حقوقا » للشعب ، فى الرقابة على أعمال الحاكم ، تسميه الشريعة « واجبا » مفروضا على الأمة .

(٢) تم استيراد الديمقراطية أولا ثم الاشتراكية والآن عود للديمقراطية بشرط ألا يليها المسلمون! .

(٣) كانت الثورة فى منشئها إسلامية ، فجاء سعد زغلول فحولها إلى وطنية علمانية تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » ! انظر إن شئت قصة سعد زغلول فى كتاب «واقعنا المعاصر » ص ٣١١ ـ ٣٢٤ .

يريد المصريون ؟ فقيل له يريدون أن يكون لهم برلمان ودستور . فقال ساخرا : « Give them a toy to play with : أعطوهم لعبة يتلهون بها » !!

أما المهازل فتنشأ من تدخل السلطة بالقوة لإنجاح « مرشح الحكومة » ، وتزييف الانتخابات ، واستغلال أمية الناخبين ، وشراء الأصوات بالمال ، وإلغاء الصناديق الحقيقية بالكلية والإتيان بصناديق بديلةمعدة من قبل بالنسبة المطلوبة (٩٩,٩٪) ! واعتقال المعارضين لمنعهم من دخول الانتخابات ، وتقسيم الدوائر تقسيما تحكميا يخدم مصالح بعض المرشحين على حساب الآخرين . .

أما المآسي فليس أقلها تفريق الأسر وإيجاد العداوات ضد بعضها البعض ، بل إيجاد العداوات داخل الأسرة الواحدة أحيانا ، نتيجة الانتماء إلى الأحزاب المتفرقة ، ونشر الكذب السياسى ، وخداع « الجماهير » بالوعود المعسولة ، ونشر « المحسوبية » ، وملء كل حزب يصل إلى الحكم وظائف الدولة بأتباعه ومنافقيه من غير ذوى الكفايات مهما ترتب على ذلك من ضياع مصالح تلك « الجماهير » . . فضلا عن كون الدولة الصليبية المسيطرة فى المنطقة هى التى تحكم فى الحقيقة من خلال تلك الأحزاب ، والجماهير لاهية عن ذلك ، غير ملتفتة إليه وهى منهمكة فى صراعاتها الحزبية التافهة . . فتتضاعف الجريمة بسبب ستر العدو الحقيقى ، وصرف همة الناس عن مجاهدته ، وتوجه الجهد كله إلى صراع الأحزاب بعضها ضد بعض !

وقد كان هذا كله ذريعة لما هو أسوأ منه بكثير . . وهو الانقلابات العسكرية التى قامت بحجة إصلاح الفساد الذى أحدثته الأحزاب فى حياة الناس !!

ولقد كانت الانقلابات العسكرية هى قمة المأساة . .

فقد كانت الشعوب العربية بالذات قد ثارت على مظالم الحكم التركى ، وطلبت الاستقلال عن الدولة العثمانية فرارا من الظلم[١] ، وضحك عليها اليهود والنصارى معاً - عن طريق لورنس ، رجل المخابرات البريطانى الذى قاد « الثورة العربية الكبرى » فى حقيقة الأمر - فأفهموها أنها ستحصل على الاستقلال ، وعلى العدل السياسى ، وعلى

---

(١) ثار الشعب التركي أيضا - أو أثير - وكان نصيبه بعد ثورته على يد أتاتورك أقسى بكثير مما اشتكى منه أثناء حكم السلاطين !

العصرانية والتمدن والتقدم ، وأنها ستولد ولادة جديدة بعد الثورة ، وتحقق من أحلامها مالم يتحقق لها فى التاريخ !

وعملت « الثورة العربية الكبرى » عملها ، ففتتت وحدة العالم الإسلامى ، وأسهمت إسهاما ظاهرا فى هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى [1] ، ودمرت الخط الحديدى الذى كان السلطان عبد الحميد قد أنشأه مابين اسطنبول والمدينة المنورة، ثم . . تقاسمت بريطانيا وفرنسا بلاد العالم العربى ، وقسّمتاه إلى دويلات ضعيفة هزيلة فقيرة ، خاضعة كلها للاحتلال الصليبى ، ووُضِعت فلسطين ـ هدف اللعبة كلها ـ تحت الانتداب البريطانى ، تمهيدا لتسليمها لليهود فيما بعد ، وإنشاء إسرائيل.

وكان هذا هو الثّمَن الذى حصلت عليه الدول العربية حين ثارت ـ أو أثيرت ـ ضد مظالم الحكم العثمانى : فقدت استقلالها ، وفقدت كرامتها ، وفقدت الأرض المقدسة التى بارك الله فيها وجعلها مسرى رسوله ﷺ ، وفيها ثالث الحرمين الشريفين ، واستعبدت للغرب الصليبى ، وعاث اليهود فى أرجائها .

ولم تكن المظالم العثمانية شيئا مقبولا ، ولا كان السكوت عليها جائزا فى شرع الله . . ولكن الحل الذى قدم للأمة كان أسوأ بكثير فى مجموعه من الحال التى اشتكى منها المسلمون من قبل ، حتى لقد انطبق عليه قول الشاعر :

رب يـوم بكيت منه فلمـا   صرت فى غيره بكيت عليه !

ومع ذلك فلم تكن تلك قمة المأساة . .

كانت القمة ـ كما أشرنا ـ هى الانقلابات العسكرية التى جاءت لتصلح الفساد الذى أحدثته الخطوة السابقة ، وتحرر الأمة من النفوذ الأجنبى الذى احتل العالم العربى بعد انسلاخه من الدولة الأم ! !

لم تذق الأمة الإسلامية فى تاريخها كله ظلما أشد من ذلك الظلم الذى أوقعته بها الانقلابات العسكرية . . فقد كان الاستبداد السياسى فى العهود السابقة محدود

---

(١) قال اللورد أللنبى ـ قائد الجيش العربى الثائر ـ لولا معاونة الجيش العربى مااستطعنا أن نتغلب على تركيا!!

النطاق . . يتعرض له أفراد بأعيانهم أو جماعة بعينها يقع عليها غضب السلطان ، ولكن الإنسان العادى لايناله من ذلك الظلم إلا طمع الولاة فى ماله ، أو مايفرضونه عليه من الضرائب الباهظة مع فقره . . ولكنه يذهب إلى عمله وهو آمن ، ويعود إلى بيته وهو آمن ، ويجلس إلى أصحابه فى القرية أو المدينة وهو آمن ، يسمرون ، أو يتبادلون الحديث عن أوجاعهم ومتاعبهم ، أو يشتمون الوالى ـ فى غيبته ـ وربما تعدوا الوالى فيشتمون السلطان ذاته . . وهم آمنون !

أما الحكم العسكرى فقد كان شيئا يفوق فى بشاعته كل حد . .

لا أمن . .

فجواسيس الحاكم يعدّون على الناس أنفاسهم . والويل لمن تكلم بكلمة ينتقد فيها عملا واحدا من أعمال الفرعون الجبار . . السجن والتعذيب والتشريد . . وقد يلقى حتفه فى معتقله فى ليل أو نهار فى أثناء التعذيب ، فلا يجرؤ أهله ـ لانقول أن يشتكوا ـ بل حتى أن يسألوا عنه : أحىّ هو أم ميت . . ومن سأل فجزاؤه على سؤاله أن يؤخذ إلى حيث يعود أو لايعود !

وألوان من التعذيب تعفّ عنها الوحوش . .

فالوحش يفترس ليأكل ، فإذا شبع انصرف وكف عن الافتراس . ولكنه لايفترس من أجل تعذيب فريسته ، والتلذذ برؤية العذاب ينصب عليها ، كما يصنع الإنسان حين يفقد آدميته ، وينتكس أسفل سافلين .

وقد مارس العسكر هذه الوحشية كلها وهم « يحررون » الشعب من الخوف ! ويحررونه من الذل ! ويحررونه من الاستعباد !وكان أحد هؤلاء الطغاة ينادى وهو يمارس أبشع ألوان الإذلال لشعبه : ارفع رأسك يا أخى ! فقد مضى عهد الاستبداد ! !

ذَلَّ الناس .·. وانكسرت نفوسهم . . وشملهم الرعب القاتل من « زائر الليل » الذى ينتزع الناس فى جوف الليل من ديارهم وأزواجهم وأطفالهم ، ليلقيهم فى ظلمات لايعلم أحد مداها ، بل أخذت النساء كذلك لأول مرة فى تاريخ الأمة ليعذبن داخل السجون .

ومع الفزع عم الفقر الشعب كله ، إلا المحظوظين الذين اكتنزت جيوبهم بالمال

الحرام المسلوب من الأمة تحت سطوة القهر . . وطُحِنْت مع كرامة الأمة أخلاقياتها ومثلها وقيمها ، وأصبح الهم الأكبر للناس البحث عن لقمة الخبز ، لهثاً وراءها حتى يجدوها ـ إن وجدوها ـ منقوعة فى الذل والخوف والهوان .

ولحساب من يحدث هذا كله ؟!

لحساب من يسحق الشعب ، وتلقى كرامته فى الأرض وتداس بأقدام الطغاة ؟!

لحساب الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، حتى تأمن إسرائيل وتستقر وتتوسع ، والشعوب الإسلامية حولها مسحوقة لاتملك الاعتراض ، فضلا عن الرفض . . فضلا عن الجهاد المقدس ضد الغاصبين .

وهذا الذى ظفرت به الشعوب التى ثارت على مظالم العثمانيين !!

مرة أخرى نقول : لم تكن مظالم العثمانيين مقبولة ، ولاكان السكوت عليها مقبولا فى شرع الله . ولكن العلاج الذى تناولته الأمة ـ فى التيه ـ كان أفظع بكثير ، وأمرّ بكثير . . كان هو الذل والهوان والضياع .

ومن عجب أنه كان فى التيه ـ دائما ـ طبالون وزمارون ، يطبلون ويزمرون لكل مرحلة من مراحل التيه . فإذا جاء غيرها لعنوا الأولى التى كانوا يطبلون لها ويزمرون ، وبدءوا طبلهم وزمرهم للمرحلة الجديدة بنفس الحماسة ونفس «الولاء» !

حين جاءت الديمقراطية وتشكلت الأحزاب وخاضت « المعارك » ضد بعضها البعض ، هلل الدعاة وكبروا ، وقالوا : الآن تحررت الأمة وارتقت ، وأصبحت تعبر عن إرادتها من خلال الأحزاب . . وحين جاءت الدكتاتورية الاشتراكية قام الدعاة يلعنون «العهود البائدة» التى أفسدت الأمة بالصراعات الحزبية ، وشتتت كلمتها ، وأفقدتها وحدتها . . ويعلنون فى الوقت ذاته أنه قد آن الأوان للأمة أن تتوحد ، وتتحرر من الفساد ، وتستعيد شخصيتها المفقودة ، وتسير فى طريق الفلاح . . !

ويدور الطبالون والزمارون . . كتابا وصحفيين ، وخطباء وفنانين ، وقصاصين ومسرحيين . . والأمة تدور وراءهم فى ظلمات التيه !

* * *

ولم يكن ذلك هو التيه الوحيد فى المجال السياسى . .

فقد نُشِرَتْ ـ وانتشرت ـ دعاوى القومية والوطنية فى مقابل الوحدة الإسلامية . .

لم تكن الوحدة الإسلامية فى تاريخ هذه الأمة دعوة ولا دعوى . . إنما كانت واقعا معيشا ، لاتفكر الأمة فى غيره ، بحكم أنها تدين بالإسلام .

وقد تفككت « الدولة الإسلامية » أكثر من مرة ، فى المشرق والمغرب ، لأسباب كثيرة ، ولكن شعور الأمة بأنها أمة واحدة من المغرب إلى المشرق لم يتأثر بتفكك الدولة ، بل لم يتأثر بالحروب التى قامت بين بعض الدويلات الإسلامية وبعض . « فالدول » بسلاطينها وأمرائها شىء ، و«الأمة » بوحدة عقيدتها ، ووحدة شعائرها ، ووحدة أفكارها ، ووحدة قيمها وتصوراتها شىء آخر ، لا دخل فيه لصراعات السلاطين والأمراء . .

حتى دخلت « الأمة » فى التيه . .

عندئذ تفككت وحدتها لأول مرة فى التاريخ . . ذ لك أن الرابط الجامع لم يعد هو الذى تجتمع عليه الأمة . . وإنما حلت محله الأفكار الدخيلة المستوردة من الغرب ، وهذه من شأنها أن تفرّق لا أن تجمّع . . من شأنها أن تحوّل الأمة إلى فتات . .

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ لم تكن تعى ذلك . .

كانت تظن ـ وهى تتزيا بزى الوطنية والقومية ـ أنها ترتدى آخر « موضة » فى عالم الفكر السياسى ، وأنها تخلع رداءها القديم البالى الذى مرت عليه القرون الطوال !

وحقيقة لقد كان الثوب قد أخذ يبلى . . لا لأنه قديم ! فهو ثوب من طبيعة خاصة ، تتجدد خيوطه ـ تلقائيا ـ مع كل جيل جديد . . إنما كان قد أخذ يبلى لأن «الروح » التى تجدد الخيوط كانت قد خمدت فى داخل القلوب .

ولم يكن الحل أن تخلع الأمة رداءها . . إنما كان الحل أن تجدده . . فبمجرد أن تحيا العقيدة فى القلوب تتجدد خيوط الرداء من تلقاء نفسها ، كما تتجدد أوراق الشجرة بمجرد أن تتحرك العصارة الحية فى أليافها :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . . ﴾[1] .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥ .

ولكن الأمة نظرت إلى ثوبها الذى أخذ يهترئ فلم تقدره حق قدره . . لم تقدر قيمته، ولم تقدر قدرته العجيبة على التجدد ، التى أودعها الله فى الكلمة الطيبة ، كلمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

خلعته زاهدة فيه . . وهفت فى سذاجة - أو فى بلاهة - إلى الأثواب المزركشة المستوردة من الغرب ، ولم تختبرها بعين بصيرة لكى تكتشف رداءة النسيج . .

لقد كانت القومية والوطنية ردود فعل أوربية لأزمة أوربية بحتة . . ولم تكن نتاجا «إنسانيا» كما زعم موردوها إلى العالم الإسلامى .

لقد كان طغيان الكنيسة الأوربية بدينها المحرف أساس البلاء كله الذى وقع فى الغرب .

فحين زاد الطغيان عن الحد المحتمل ، أو قل حين دب الوعى بالطغيان فى نفوس الأوربيين بعد احتكاكهم بالإسلام ، حاولوا الانسلاخ من نفوذ ذلك الغول البشع الذى يفسد عليهم حياتهم ، فاستقلوا بادئ ذى بدء فى كنائس - أى مذاهب - لاتخضع لنفوذ البابا ، وانتهى الأمر إلى أن تصبح تلك السلخ المنسلخة قوميات ووطنيات . .

ثم قامت بينها الحروب التى كادت تعصف بكيان أوربا ، لولا تزامن أمرين اثنين على الأقل أعطيا تلك القوميات قوة ورسوخا ظن الأوربيون أنهما من طبيعة القومية والوطنية فزاد تمسكهم بهما ، حتى أدركوا أخيرا مقدار الشر الكامن فيهما ، فأخذوا يحاولون التجمع تحت رايات جديدة تذيب حواجز القومية والوطنية ، وتجمّع أوربا فى وحدة شاملة [1] . .

أما الأمران اللذان أعطيا القوميات قوة - لفترة من الزمن - فأولهما الثورة الصناعية ، وثانيهما ضعف العالم الإسلامى !

الأول حفز كل قومية أن تنافس الأخرى بالقوة الاقتصادية الناجمة عن الصناعة ، والثانى جعل القوميات الأوربية تكف - مؤقتا - عن قتال بعضها البعض ، وتتجه إلى غزو العالم الإسلامى ، ونهب خيراته . .

---

(١) كانت آخر محاولاتهم هى «السوق الأوربية المشتركة» .

وكان من همّ الغزو الصليبى للعالم الإسلامى أن يفتته لقيات صغيرة ليستطيع ابتلاعه ، فزين للأمة ـ وهى فى التيه ـ أن تلقى رداءها ذا النسيج الفذ ، وتتزيا بتلك الأثواب الرديئة النسيج ، المزركشة الألوان . .

ولما فعلت ذلك تم المطلوب ! وازدرد الغرب الصليبى فريسته ، بعد أن ساعدته على نفسها ، بتحويل نفسها إلى فتات !

* * *

لم تكن قضايا السياسة وحدها هى التى فسدت وأفسدت الأمة فى مرحلة التيه . .

فقد كانت تنحية الشريعة شرًا شاملاً ، شمل من حياة الأمة كل شىء ، وأفسد من حياتها كل شىء . .

لقد أفسدت باديً ذى بدء عقائد الناس وتصوراتهم عن « الدين » .

فالدين ـ كما نزل من عند الله ـ عقيدةوشعيرة وشريعة . . دين ودولة . . ومنهاج حياة[1] .

ولكن الناس ـ فى التيه ـ فقدوا ذلك التصور الواضح ، وتشربوا بدلا منه المفهوم الغربى الكنسى ، الذى يفصل الدين عن الدولة ، ويصور الدين علاقة بين العبد والرب محلها القلب ، ولا علاقة لها بواقع الحياة !

فقدوا الإحساس بمعنى قوله تعالى : ﴿فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله؟﴾ [4].

وهم يتلون ذلك كله فى كتاب الله ، ولكنه لايصل إلى أفئدتهم ـ فى التيه ـ إلا أصداء بعيدة غير ذات مدلول . .

وصحيح أن مفهوم « الدين » ومفهوم « لا إله إلا الله » ومفهوم « العبادة» كان كله قد

---

(١) اقرأ ـ إن شئت ـ كتاب « لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة » .

(٢) سورة النساء : ٦٥ . (٣) سورة المائدة : ٤٤ . (٤) سورة الشورى : ٢١ .

انحسر فى نفوس المسلمين قبل مجئ الغزو الصليبى ، وهزيمة الجيوش الإسلامية أمامه. ولكن الانحسار كان قد توقف عند آخر حاجزين لم يكن يمكن - فى حس المسلمين - أن يحدث التراجع عنهما وهما الصلاة وتحكيم شريعة الله . فقد يتهاونون فى كل شىء ، ويغضون الطرف عن أى مخالفة ، ولكن يبقى فى حسهم أن المسلم يصلى، ولايمكن أن يكون مسلما إذا ترك الصلاة ، ويتحاكم إلى شريعة الله ، ولايمكن أن يكون مسلما إذا تحاكم إلى غير شريعة الله . .

ولكنهم - فى التيه - تراجعوا عن كلا الحاجزين فى وهلة الانبهار ! تراجعوا أولا عن الشريعة ، ثم تراجعوا عن الصلاة !

وأسرع الطبالون والزمارون يزينون للأمة مافعلت ، ويقولون لها فى الخطوة الأولى : لابأس عليكم من عدم تحكيم شريعة الله ، فتلك مسألة خاضعة «للتطور» ! ومادمتم تصلون وتصومون فأنتم مسلمون ! ثم زينوا لهم - كما سيأتى بيانه - أن يتركوا الصلاة والصوم وسائر الشعائر التعبدية ، ثم قالوا لهم: لابأس عليكم وإن لم تصلوا ولاتصوموا. . فمادمتم تقولون لا إله إلا الله، فأنتم مسلمون !!

ووقعت الأمة فى الفتنة من جانبين . . جانب الطبالين والزمارين - دعاة الغزو الفكرى - وجانب علماء السوء ، عبيد السلطان.

فأما الطبالون والزمارون فقد قالوا للأمة: لقد كنتم تطبقون الشريعة وتقيمون الشعائر وتملئون المساجد فماذا أصابكم من ذلك كله إلا الضعف والتأخر والخذلان أمام الغرب؟ وهاهو ذا الغرب لايحكّم شريعتكم الجامدة ! إنما يحتكم إلى قانون متطور مواكب للأحداث ، وهاهو ذا لايصلى مثلكم ولايصوم . . فأين هو وأين أنتم ؟ هو فى القمة وأنتم فى الحضيض ! فدعكم من تلك الأغلال التى كانت تكبلكم. . وانطلقوا . . انطلقوا إلى الحضارة والقوة والرقى والتقدم!

وأما علماء السوء فقد اتكئوا على الفكر الإرجائى : من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام !! ربكم رب قلوب! مادام قلبك عامرا بالإيمان فلا يهمك شىء . . ولا يضر مع الإيمان معصية !

وتلاقت الفتنة من هنا ومن هناك . . واندفعت الأمة فى التيه !

فأما « الطيبون » فقد ظلت عواطفهم مع الإسلام ، ومع كتاب الله ، ولكنهم جلسوا

يتحسرون على الأيام الفائتة ، ويقولون لأنفسهم : ماحيلتنا ؟ لقد تغير الزمان ! ولم يعد فى الوسع الرجوع إلى ماكان !

وأما العملاء فقد فركوا أيديهم سرورا بتخلص البلاد من عدو أسيادهم الذين يدينون هم لهم بالولاء !

وأما جموع أخرى من الناس فقد وقفوا حائرين : هل من المعقول أن يكون هؤلاء «الإفرنج» الراقون المتحضرون المتقدمون الذين نجلس نحن عند أقدامهم ـ إن سمحوا لنا أن نجلس هناك ـ هل من المعقول أن ينطبق عليهم ماجاء من وصفٍ فى القرآن : أنهم الخاسرون . . أنهم الضالون . . أنهم هم الصم الذين لايسمعون ، العمى الذين لا يبصرون؟ !

وى!

ومن الرابح إذن ومن المهتدى . . ومن المفتوح البصر والبصيرة ، الواصل إلى جوهر المعرفة وعلم اليقين ؟!

كلا ! لابد أن يكون القرآن يصف قوما آخرين . . كانوا فى الماضى . . أما حاضر الغرب فلا يمكن أن ينطبق عليه الوصف !

ونحن أيضا ! أتنطبق علينا الأوصاف الواردة فى القرآن إذا قلدنا الغرب وحاولنا أن نصنع مثلما يصنع ؟

حين نتعلم مثلهم ، ونرتقى مثلهم ، ونحطم الأغلال مثلهم، ونحرر المرأة مثلهم ، ونشرع لأنفسنا مثلهم . . أنكون عندئذ فى حكم « الجاهلية » كما يقول القرآن ؟!

كلا ! كلا !

إما أن القرآن قد نزل لقوم معينين ، كانت أحكامه صحيحة بالنسبة إليهم ، لأنهم كانوا فى بداوتهم لايملكون فكرا راقيا ينظمون به حياتهم ، فكان القرآن رفعاً لهم وتقدماً بالنسبة إليهم ، وإما أن الدين كله ـ كما تقول أوربا ـ قد أخلى مكانه اليوم للتقدم البشرى المبنى على « العلم » . . فلا علينا إذن أن نخالف أحكامه ونحن مطمئنون !

* * *

كانت الشريعة هى العقدة الضامّة . . فلما انحلت انفرط عقد كل شىء . .

ولم يكن التغيير كله ذاتيا بطبيعة الحال . . بل أقله هو الذى كان تلقائيا ، وأكثره كان مدفوعا مدبرا مخططا من قِبَل القوى الصليبية المسيطرة ، تعاونها الصهيونية الداخلة تحت كنفها ، العاملة فى إطارها . ولكن الأمة ـ فى التيه ـ كانت سرعان ماتتقبل التغيير، سواء كان ذاتيا من المنبهرين ، أو مدفوعا مدبرا مخططا من الصليبيين والصهيونيين .

ولم يبق مجال واحد من مجالات الحياة بعيدا عن تيار التغيير . .

تغيرت الحياة الاقتصادية

دخل الربا رسميا وعلنياً فى حياة الناس. فقد قيل للناس : كيف تحكّمون مفاهيمكم الدينية الجامدة فى دورة الحياة العصرية المتقدمة الموارة بالنشاط الحىّ ؟ تريدون أن تجمدوا الحياة على صورتها البدائية التى كانت عليها فى القرون الوسطى ؟!

إن الاقتصاد الحديث لايمكن إدارته بدون الربا . . لايمكن ! لأنه لابد من بنوك تقرض أصحاب الأعمال . . والبنوك شأنها هكذا . . لاتعمل بغير ربا ! لأنها لابد أن تضمن أموالها التى تقرضها لأصحاب الأعمال . . فكيف إذا حكّمتم شريعتكم التى تحرم الربا ؟! تتوقف البنوك عن الإقراض ، ويعجز أصحاب الأعمال عن إدارة أعمالهم، فتتوقف دورة الاقتصاد ، وتتخلف الأمة ، ويسبقها غيرها . الربا ضرورة . والضرورة تبيح المحظور . . فاحتفظوا بشريعتكم فى قلوبكم . . أما واقعكم فاتركوه ينطلق مع دوامة الحياة الحية . . أو فلتبقوا جامدين ، ودعوا أوربا تسبقكم فى جميع المجالات !

وتقبلت الأمة ـ فى التيه ـ كل القول على عواهنه . . وانساقت مع « الأمر الواقع » .

ولم يكن لديها من الوعى أو البصيرة ماتفند به القول ، فضلا عن أن يكون لديها مبادرتها الخاصة المستمدة من فكرها وتصوراتها وعقيدتها . . فضلا عن أن تعتز بوضعها الذى أخرجها الله من أجله فتكون هادية ورائدة تصحح للبشرية أخطاءها وانحرافاتها . .

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (١) .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣ .

فأما أن بنوكهم هكذا . . فنعم !

فالبنك ـ فى صورته الغربية ـ فكرة يهودية بحتة ، وتنفيذ يهودى كذلك . .

فحين قامت الثورة الصناعية فى أوربا ـ وكانت فى حاجة إلى المال لتمويل مشروعاتها ـ لم يكن هناك من يملك المال المطلوب إلا أمراء الإقطاع والمرابين اليهود . . وقد أحجم أمراء الإقطاع عن تمويل الحركة الصناعية لأكثر من سبب ، فتقدم المرابون اليهود لعملية التمويل ولعابهم يسيل ! فقد أتيحت لهم فرصة « ذهبية » لتشغيل أموالهم بالربا على نطاق واسع . فهم لم يكونوا يشاركون بالمال الذى فى أيديهم فى المشروعات الصناعية ـ وقد كان كثير منها يخسر فى مبدأ قيام الثورة الصناعية لإحجام كثير من الناس عن استخدام ماتنتجه الآلة ، كما كانت طرق المواصلات غير ممهدة، وكان التخطيط شبه معدوم ، والإعلان عن المنتجات غير متوفر ـ إنما كانوا يقرضون المال بالربا . . وسواء كسب المقترض أم خسر ، فهم فى مأمن من الخسارة بما يفرضون من ربا مقابل إقراض المال . . وحتى ذلك المال لم يكن كله مالهم الخاص ! فقد كان كثير منه من الودائع التى تعود الناس فى أوربا أن يودعوها عند اليهود . وهكذا ولدت فكرة البنك الذى يأخذ ودائع المودعين فيقرضها للمقترضين مقابل جعل ربوى يفرض عليهم، ويعطى صاحب الوديعة جانبا من الفائدة على وديعته ، ويأخذ البنك ـ أى أصحابه اليهود ـ بقية « الفوائد » ربحا خالصا مقابل لاشىء ! أى مالا حراما لايحله الله :

﴿الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرّم الربا . فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لايحب كل كفار أثيم ﴾ [1] .

وأما أن الاقتصاد«الحديث»لايصلح بغير الربا ففرية يهودية، أطلقها اليهود وروّجوها ليضمنوا لأنفسهم السيطرة المستمرة على عالم الاقتصاد ـ الذى يسيطرون عن طريقه على حياة الأمميين السياسية والاجتماعية والأخلاقية والفكرية والإعلامية، ويستحمرونهم به لحسابهم الخاص ـ وعقلاء الغرب أنفسهم بدءوا يرون بأعينهم ويلات الربا، ويفكرون فى منهج بديل .

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

ولكن الأمة الإسلامية ـ فى التيه ـ لم تكن تجرؤ حتى أن تحدث نفسها فى سريرتها بأن الغرب يمكن أن يخطئ ! إنما المخطئ من يخالف الغرب ! وعلى المخالف أن يصحح موقفه ليتناسق مع « الأمر الواقع » أو « مع الرأى العام العالمى » أو مع « مقتضيات الحياة الحديثة » أو مع مايكون من المسميات!

وقام « المفتى » يحلل الربا « البسيط » . . ربا « صندوق البريد » . . بحجة أن المحرم هو « الأضعاف المضاعفة» وليس أصل الربا ! وقام غيره يحلل ربا السندات التى تصدرها الدولة ، بحجة أن الدولة لاينطبق عليها ماينطبق على الأفراد !! وقام غيره وغيره وغيره . . وقام آخرون ـ فى التيه ـ ينادون علانية بوجوب تنحية الشريعة من أجل التقدم الاقتصادى الذى تتحقق به « مصلحة » الشعوب ! .

* * *

وتغيرت الحياة الاجتماعية . .

تفككت روابط الأسرة . .

وأصبحت « الأسرة الكبيرة » عيبا يتندر به « المثقفون » !

ذلك أن « المثقفين » قرءوا فيما قرءوا عن حياة الغرب أن الأسرة الكبيرة التى تشمل الأجداد والأحفاد إلى جانب الآباء والأبناء كانت سمة من سمات المجتمع الزراعى ـ الذى يوصف دائما بأنه مجتمع متخلف ـ أما المجتمع الصناعى ـ الذى يوصف دائما بأنه المجتمع المتطور ـ فقد ذابت فيه الأسرة الكبيرة ، وصارت الأسرة تقتصر على الأب والأم والأولاد . . وحتى الأولاد فإلى سن معينة ثم ينفصلون عن آبائهم ، ويؤسسون لأنفسهم حياتهم الخاصة ، ولو لم يتزوجوا ويكوّنوا أسرة . . فهذا أمر آخر ! إنما المهم هو الاستقلال الاقتصادى الذى يصحبه الانفصال عن الأبوين !

ياله من تقدم !

وإذا كنا نحن بعواطفنا «الشرقية» لانتحمل هذه الجرعة الكبيرة من التقدم الحضارى ، فلنقتصر على إخراج الأجداد والأحفاد من نطاق الأسرة . . ولتظل الأسرة هى الأب والأم والأولاد ، إلى أن يتزوجوا ويكوّنوا أسرهم الخاصة ، ولنترك الأسرة الكبيرة لسكان الريف ، بحكم أنهم مجتمع زراعى متخلف ، لايرجى له أن يتحضر من قريب !

أما الروابط الأسرية الموروثة التى كان منبعها تعاليم الدين فقد آن لها أن تتغير ، لأن الدين لم يعد فى هذا العصر مصدر التوجيه . لقد صارت العلاقات الاقتصادية هى محور الحياة « الحديثة » (يقولها قائلها مفتخرا بأنه نال شيئا من « الحداثة » ولو بلمس اليد من بعيد !) وصارت هى التى تقرر للناس روابطهم [١] ، فإذا تعارضت معها تعاليم الدين ، فتعاليم الدين هى التى ينبغى أن تتنحى . . لأنها نزلت فى جو آخر ، ولقوم آخرين . . ولم يعدلها مجال فى عالمنا المتطور الحديث . .

وانفك رباط الناس بالبيت . .

لقد كان البيت المسلم هو « المجتمع » الصغير الذى ينشأ فيه الصغار ويرتبطون بالكبار ، يرتبطون رباط الأبناء بآبائهم ، ورباط القيم والأخلاق والتقاليد ، ورباط الألفة والمودة ، ورباط الاستقرار النفسى والعاطفى ، وكلها معان ـ كانت ـ مستمدة من الدين . .

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٢] .

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[٣].

ولكن الأحوال تغيرت . .

أصبحت هناك ـ فى الخارج ـ جواذب تجذب الناس إلى خارج البيت . .

هناك المقاهى . . يمكن أن يسهر فيها الناس إلى منتصف الليل ، يلعبون النرد ، أو يلعبون الورق ، أو يشربون « الشيشة » ، أو يثرثرون فى شتى الأحاديث التى كان مكانها من قبل زيارات الناس بعضهم لبعض فى البيوت . .

وتلك المقاهى هى على أى حال « للأتقياء » من الناس !

---

(١) قد يلاحظ أن هذه المقولة هى مقولة التفسير المادى للتاريخ ، ولكن التفسير المادى للتاريخ ليس خاصا بالفكر الشيوعى كما قد يظن البعض . إنما هو فكر أوربا كلها فى عصرها الحديث بتأثير اليهود فيها .

(٢) سورة الروم : ٢١ . (٣) سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٢٤ .

أما غير الأتقياء فلهم أماكن أخرى ـ كثيرة ـ يسهرون فيها خارج البيت . .

أمامهم البارات والحانات . . وقد سارع الغازى الصليبى بعد تنحية الشريعة إلى إعطاء تصاريح رسمية ببيع الخمر ، وإيجاد أماكن مرخص بها يجلس الناس فيها ليحتسوا الخمر علانية . . وكتب عليها أنها تقدم «المشروبات الروحية»(!)[1] لروادها ! وأمامهم المسارح والمراقص ودور اللهو . .

وأمامهم بيوت الدعارة الرسمية ، مفتوحة بإذن الدولة . . الدولة «المسلمة !» وعليها حراسها يحمون القائمات ببيع الرذيلة فيها كما يقومون بحماية أى مرفق من مرافق المجتمع . . [2] .

وأصبح السهر خارج البيت سمة من سمات « المجتمع الجديد» الذى استحدثته الأمة فى التيه ، يفكك روابط البيت التقليدية ، وينشىء أجيالا لاتستمتع بما كانت تستمتع به الأجيال السابقة من رعاية الأب ، ووحدة المشاعر ، وألفة النفوس . .

ثم جاء دور المرأة لتخرج كذلك من البيت !

جاءت قضية « تحرير المرأة » . .

ولقد كانت المرأة فى حال ممعنة فى السوء . .

جاهلة لاتقرأ ولاتكتب ولا تتعلم . . مغلفة بالوهم والخرافة، لاتفقه شيئا مما يدور فى مجتمعها ولا فى العالم كله من حولها . حديثها مع جاراتها هو عن الأضرحة والمشايخ، والحسد و « العمل » ، والعفاريت والجن ،وما أصاب الأولاد من أمراض، وماوصف الشيخ من علاج بالأحجبة والتمائم . . والتى طلقها زوجها ليتزوج الأخرى التى سحرت له ، والتى اشتعلت غيرة من ضرتها . . والتى كادت لحماتها وكادت حماتها لها . .

ثم كانت مهينة مهضومة الحقوق سواء كانت فتاة فى بيت والدها ، أو زوجة فى بيت زوجها ، أو مطلقة محرومة من أولادها . .

---

(١) هذه ترجمة لكلمة Spiritual فى الانجليزية وهى لفظة مزدوجة المعنى ، فهى إما أن تعنى الروحية أو الكحولية ، ولكن المغالطة واضحة فى وصف الخمر بأنها روحية !!

(٢) ألغيت دور البغاء الرسمى فيما بعد ، لا تأثما ، ولا تحرجا من المهانة التى وقعت فيها الدولة « المسلمة» ولكن لأن الهاويات أغنين عن المحترفات !

وكانت نظرة الرجل إليها نظرة أقرب إلى الحيوانية ، فإن خرجت عن الحيوانية فهى فى محيط الحمل والولادة والإرضاع وتدبير المنزل ولازيادة . .

ولم يكن ذلك كله من تعاليم الإسلام . . بل كان خروجا على تعاليم الإسلام ، التى تقرر المساواة فى الإنسانية وتوجب على الرجال معاملتهن بالمعروف :

﴿ . . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض . . ﴾ [1] .

﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ [2] .

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا ﴾ [3] .

﴿وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ [4] .

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾[5] .

﴿ خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى ﴾ [6] .

﴿ لاتنكح الثيب حتى تستأمر، ولاتنكح البكر حتى تستأذن . وإذنها صمتها﴾[7] .

وقد كانت المرأة فى عهد رسول الله ﷺ « شقيقة » الرجل كما بيّن عليه الصلاة والسلام فى قوله : « إنما النساء شقائق الرجال» [8] . فكانت شريكة فى الإيمان ، وشريكة فى الدعوة ، وشريكة فى الجهاد ، وشريكة فى بناء المجتمع الجديد على قيم الإسلام ومبادئه ، ولاتقوم هذه الشركة إلا بالممارسة الفعلية لتلك القيم والمبادئ . . كل ذلك فى نظافة خلق ، وطهارة من الدنس ، وعفة عن الحرام ،والتزام بالحجاب ،

---

(١)سورة آل عمران : ١٩٥ .

(٢) سورة النحل : ٩٧ .

(٣) سورة النساء : ١٢٤ .

(٤) سورة النساء : ١٩ .

(٥) سورة البقرة : ٢٣١ .

(٦) أخرجه الترمذى بإسناد صحيح .

(٧) أخرجه الشيخان .

(٨) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى .

والتزام بأوامر الله ورسوله ، التى تحرّم الخلوة بالأجنبية ، وتحرّم الاختلاط بغير موجب، وتحرّم السفربغير محرم ، وتحرّم النظرة التى هى سهم من سهام إبليس . .

ولكن المجتمع الإسلامى كان قد وقع فى ردة جاهلية بالنسبة للمرأة ـ إلا من رحم ربك ـ فعاد ينظر إلى المرأة النظرة الدون ، ويعيرها بأنها تحمل وتلد ولازيادة . .

وكان الأمر فى حاجة إلى العالم الربانى ، المجدد المجاهد ، الذى يرفع المجتمع إلى مستوى الإسلام الحق فى قضية المرأة ، وكل قضايا الوجود . . ولكن الأمة ـ فى التيه ـ تناولت علاجا آخر . . !

كان العلاج الذى تناولته هو « تحرير المرأة » على الطريقة الغربية . .

ومابنا أن نعيد هنا ماقلناه فى كتب أخرى عن قضية تحرير المرأة ، والخطوات التى مرت بها حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة [1] . . ولكننا نتكلم هنا عن صور التيه التى دخلت فيها الأمة حين بعدت عن الطريق . .

خرجت المرأة من بيتها ، وكان هذا هدفا من أهداف التوجيه الصليبى الصهيونى للبلاد الإسلامية ، مقصودا بذاته ، كما كان إغواء الرجل للسهر خارج البيت هدفا مقصودا كذلك . ولكن هذا وذاك كانا مجرد خطوة فى طريق أطول وأبعد . .

حين هجرت المرأة البيت ، هجرت معه كل القيم والمفاهيم المتعلقة به ، حتى ماكان من أصل الدين الذى أمر به اللهورسوله ، والذى لايجوز تغييره، لأن تغييره يحدث الفساد فى الأرض . .

كله تغير . .

ألقت المرأة حجابها وانسلخت منه ، وهو من أصل الدين الذى أمر به الله ورسوله .

وتدرجت فى تعرية جسمها حتى وصلت شبه عارية إلى شاطئ البحر . . وهى أمور حرمها الله ورسوله . .

وحين خرجت إلى الطريق ، وأعطت نفسها حق الكشف عما تريد كشفه من جسدها ، بدأت الفتنة . . وكان مستحيلا ألا تحدث . . وحتى لو فرضنا ـ جدلا ـ

---

(١) انظر إن شئت كتاب « واقعنا المعاصر » وكتاب « معركة التقاليد » .

أنها فى مبدأ الأمر ـ لم تخرج للفتنة ، فقد وجدت الفتنة طريقها إلى قلبها ـ وقلب الرجل كذلك ـ من أيسر سبيل ! فهاهى ذى تظهر أمام الرجل ، وهاهى ذى تبدى له من زينتها ما من شأنه أن يستثيره ، واستثير بالفعل ، وعلمت ذلك يقينا ، ورضيت عن نفسها وهى تفعل ذلك . . وبالتدريج أصبحت الإثارة هدفا ، تعمل على ترويجه بيوت الأزياء «بالمودات» المختلفة ، وبيوت الزينة بالعطور والمساحيق . . والصحافة النسوية وركن المرأة فى الصحف العامة بالصور والأخبار والتوجيهات والتعليقات : «فستان يبرز مفاتن الصدر» !و «فستان يبرز مفاتن الظهر» ! و«كيف تجذبين انتباه الرجل» و«كيف تكسبين عواطف الرجل» وكيف . . وكيف وكيف[1] . .

وحين صارت الفتنة هدفا مقصودا لم يكن يُتَصَوّرُ أن يظل الأمر كله نظريا ولاشفويا . . ولابد أن يقع المحظور . .

ووقع المحظور . .

وكان مخالفا بطبيعة الحال لكل أعراف المجتمع وتقاليده وموروثاته وقيمه ومبادئه وأخلاقه . .

وهنا قام الطبالون الزمارون بمهاجمة تقاليد المجتمع وموروثاته التى تحظر المحظور ! ونادت بضرورة إباحة ماحظره الدين !

وانحل المجتمع بالفعل ، وصار ينظر إلى المحظور على أنه مباح، وينظر إلى الحظر بعين الاستنكار !

لم تعد القضية : كيف جرؤ الناس على إباحة المحظور . . وإنما أصبحت: لماذا يحظر الدين مايجب أن يباح ؟!

ونشرت ـ عمدا ـ آراء فرويد وتعاليمه ، وتخصصت لها صحف ومجلات ، لتقول إن الحظر ـ سواء كان منبعه الدين أو المجتمع أو الأخلاق ـ يورث الكبت، والعقد النفسية ، والاضطرابات العصبية . . ولابد من إباحة المحظور لتستقر النفوس !!

وانفلت الأولاد والبنات ـ وهم فى ظلمات التيه ـ يحسبون أنهم أحرزوا أعظم نجاح فى التاريخ !

* * *

(١) هذه كلها عناوين حقيقية كانت تنشر فى الصحف والمجلات .

ماحال البيت . . ؟

وما حال المسجد ؟

البيت الذى هجرته سيدته لتخرج إلى الشارع ، سواء للعمل أو للفتنة ، أو للعمل والفتنة معا . . كيف يتوفر فيه السكن الذى جعله الله آية من آياته :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها . . » (1) .

وكيف تتوفر فيه العناية اللازمة للطفولة ، التى يتربى فيها الطفل على القيم والمبادئ والأفكار والعقائد التى يقوم المجتمع عليها ؟

لقد كان تدمير البيت هدفا مقصودا فى المخطط الشرير الذى وضعه اليهود لإفساد حياة الأمميين من أجل استحمارهم فى النهاية ، وقد وجدوا المجال مفتوحا أمامهم فى أوربا فاستغلوه جيدا ، حين خرجت المرأة للعمل من أجل الحصول على لقمة الخبز ، ثم أشعلوا قضية « تحرير المرأة » لينفروها من البيت ويحببوا إليها هجره . . فتفككت الأسرة وانحل المجتمع . . وبقى المجتمع الإسلامى على كل مافيه من اختلالات محافظا على روابط الأسرة ، وروابط « البيت » . . وكان هذا عقبة فى طريق المخطط اليهودى العالمى لإفساد الأمميين جميعا فى كل الأرض ، والمخطط الصليبى لإفساد المجتمع الإسلامى بخاصة ، ليسهل على الجميع السيطرة والتمكن ، وإزالة العدو الباقى لهم فى الأرض . .

وتم المطلوب . .

لم يعد « البيت » بالمعنى الإسلامى موجودا فى المجتمع . . لم يعد ذلك المحضن الذى يعلّم الأطفال الإسلام ، ويربيهم على تقاليده ، ويرسّخ فيهم قيمه وتصوراته . . وفرك الأعداء أيديهم سرورا بهدم الركن الركين الذى يمكن أن ينبعث منه الإسلام من جديد . . فلاخطر اليوم من الرجل ولا من المرأة ولا من الأطفال . .

وهُجِرَ المسجد . .

المسجد الذى كان دائما فى حياة المسلمين مركز الإشعاع . .

كان رمزا لكل معانى الخير . .

---

(1) سورة الروم : ٢١ .

فيه يذكر الله وتقام الصلوات . . وفيه يتعلم الناس العلم . . وفيه يتربون على القيم الإسلامية . . ومنه ينطلق الجهاد . . وفيه تبرم الأمور . .

كان البيت محضن الصغار ، والمسجد محضن الكبار . . والمؤسستان معاً تتعاونان على إقامة البناء على أسس راسخة . . وهدم « البيت » بالمعنى الإسلامى ، وهجر المسجد . . فهدمت المحاضن التى تربى الناس على الإسلام . .

وبقدر ماهجر المسجد امتلأت السينمات والمسارح ودور اللهو ودور الفساد . .

وهنا قيل للناس : لا بأس عليكم ! مازلتم مسلمين مادمتم تقولون لا إله إلا الله ، فأنتم مسلمون !

* * *

لم يقف التيه بالأمة عند هذا الحد . .

ففى عالم الفكر كان التيه واسعا إلى أقصى حد . .

لقد انفتح « المثقفون » على الفكر الغربى، ثم ترجموه إلى العربية سواء نسبوه إلى أصحابه الأصليين ـ إن كانوا أمناء ـ أو نسبوه إلى أنفسهم وتفاخروا به كذبا وزورا إن كانوا غير أمناء . وكثيرٌ ماهم !

وقد كانت فى الفكر الغربى قضايا تستحق الوقوف عندها بالفعل . . قضايا عن « الإنسان » ، وغاية وجوده ، وعلاقات الفرد بالفرد، والفرد بالمجتمع ، والفرد بالدولة، والإنسان والطبيعة . . والإنسان والله .

وكان أفسد مافى هذا الفكرحديثه عن الإنسان والله . . فقد كان الوضع فيه مقلوبا مائة فى المائة . . تأليهٌ للإنسان وإنكار لألوهية الله .

ولانخوض هنا فى الأسباب التى أدت بأوربا إلى هذا الانحراف الحاد فى هذه القضية بالذات ، فقد تحدثنا عنها فى أماكن أخرى [١] . . ولكننا نذكر فقط أن الفكر « الإسلامى ! » قد تتبع الفكر الغربى فى جميع انحرافاته ، ولم يمنعه شىء من أن يخوض كذلك انحرافات الغرب فى قضية الإنسان والله[٢] . . وكان ذلك فى عدة مجالات . .

---

(١) انظر إن شئت كتاب « رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر » .

(٢) من الكتب الجيدة فى هذا الشأن كتاب الدكتورمحمد البهى « الفكر الإسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى » طبع القاهرة .

من بين تلك المجالات ـ وفى مقدمتها ـ قضية التشريع . .

لمن يكون حق التشريع؟ لله أم للإنسان ؟

كان من الواضح أن الإسلام يقرر أن حق التشريع لله وحده بلا شريك: ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ (1) ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (2) ﴿ والله يحكم لامعقب لحكمه﴾(3) (فى شئون الكون وشئون التشريع سواء) ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟ ﴾(4) ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾(5) .

وكان من الواضح كذلك أن أوربا تقرر ـ قولا وعملا ـ أن الله لاشأن له بالتشريع ، وأن حق التشريع موكول للإنسان .

ودارت الأمة دورة فى التيه فقال قائل منها : إن الإسلام لاعلاقة له بنظام الحكم ! وإن النبى ﷺ لم يكن حاكما ، إنما كان قاضيا يقضى بين الناس ! وإن الخلافة لم تكن نظام حكم !

ودارت دورة أخرى فى التيه فقال قائل منها : إن الشريعة التى نزلت قبل قرون طويلة لم تعد تصلح لأن تحكم حياة البشر اليوم فى عالم متطور ، لاوجه للشبه بينه وبين العالم الذى نزلت فيه تلك الشريعة قبل ذلك المدى الطويل من القرون !

ودارت دورة أخرى فقال قائل منها : إن الإسلام نظام دكتاتورى . . يقوم على الاستبداد بالسلطة ،ويهمل « الأمة » التى هى ـ فى الدولة «العصرية» ـ مصدر السلطات . .

وإذا كان الجدل قد ثار ـ بالعدوى من أوربا ـ حول حق الله فى التشريع ، والتحليل والتحريم ، فقد ثار كذلك حول حق الله فى تقرير القيم وتقرير المعايير . .

من الذى يقرر القيم التى تحكم حياة الإنسان ؟ الإنسان أم الله ؟

فأما الإسلام فقد قرر بوضوح أن الله هو الذى يقرر القيم كما يقرر الشرائع لأنه هو الخالق المدبر الرزاق :

---

(1) سورة الأعراف : ٥٤ .
(2) سورة يوسف : ٤٠ .
(3) سورة الرعد : ٤١ .
(4) سورة المائدة : ٥٠ .
(5) سورة الشورى : ١٠ .

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[1] .

﴿ . . هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ ﴾[2] .

وأما أوربا فقد تمردت على ألوهية الله ، وألّهت الإنسان بدلا منه ، وقالت إن الإنسان هو الذى يقرر قيمه لأنه أعلم بواقعه ، وأعلم بمصلحته ! !

وكتب أحد كتابها كتابا سماه « الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone » أى بعيدا عن وصاية الله ، وكتب آخر كتابا سماه « الإنسان يصنع نفسه Man Makes Himself » أى بعيدا عن تعاليم الله .

وقد كانت لأوربا ظروفها التى أدت بها إلى هذا الموقف المتمرد على الله ، وهى ظروف قد تفسر ولكنها لاتبرر ، فإنه لاشىء على الإطلاق يبرر الكفر بالله .

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ لم تدرك القضية على حقيقتها ، وظنت أنه من دلائل «التقدم» أن يصوغ الإنسان قيمه بنفسه ، ويحدد معاييره ! أليس الله قد وهب للإنسان عقلا يفكر به ؟ وهاهو ذا الإنسان يشغّل عقله ليضع منهاج حياته ، مستعينا بثمار العلم وثمار التجربة . . وأى إنسان هو الذى يصنع ذلك ؟! إنه « ذلك » الإنسان ! القوى المتمكن المتفكر المتعمق ، الذى يسيطر على كل الأرض ، والذى نحبو نحن من خلفه حَبْواً ، بينما هو يكتسح الطريق !

لم تدرك الأمة أوجه الخلل فى هذه القضية .

لم تدرك أولا مجالات العمل المطلوبة من العقل البشرى ، الذى أنعم الله به على الإنسان ، وفضّله به على كثير ممن خلق . .

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[3] .

إن المجال الأول والأعظم لهذا العقل هو الاهتداء إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم عبادته وحده بلاشريك . فالإنسان عابد بفطرته . . ودَعْ عنك موجة الإلحاد

---

(١) سورة الأعراف : ٥٤ (٢) سورة فاطر : ٣ .

(٣) سورة الإسراء : ٧٠ .

المصطنعة التى روّج لها شياطين الأرض فى هذا القرن الأخير خاصة ، والتى تلاشت من ذات نفسها حين انهارت الشيوعية حامية الإلحاد، فعاد الناس ـ المهتدون منهم والضالون ـ يهرعون إلى مساجدهم وكنائسهم ومعابدهم كأن لم يكونوا قد ألحدوا قط !

الإنسان عابد بفطرته . . وإنما الفرق بين عابد وعابد أن أحدهما يعبد الله الحق ، ويعبده وحده بلاشريك ، وآخر يعبد آلهة أخرى غير الله ، معه أو من دونه ، ويتصور الله على غير حقيقته ، أو يعبد هواه :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ ﴾[1] .

والمهمة العظمى للعقل الذى وهبه الله للإنسان أن يبحث فى تلك القضية الأساسية، التى يترتب عليها كل مصير الإنسان فى الدنياوالآخرة : ﴿أإله مع الله﴾[2] .

فأما فى الآخرة فيترتب عليها الخلود فى الجنة أو الخلود فى النار . .

وأما فى الدنيا فيترتب عليها إجابة أسئلة كثيرة : من المعبود الذى تجب له العبادة؟من المشرع الذى يحل ويحرم؟ من المقرر الذى يقرر منهج الحياة؟ مامصدر التلقى فى قضايا الحياة الكبرى ؟ فضلا عن الإجابة على أسئلة أخرى تخطر على الفطرة وتحتاج إلى إجابة ، وإن لم تتلق الإجابة الصحيحة تحيّر الإنسان وتشقيه : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ من أين جئنا؟ إلى أين نذهب بعد الموت ؟ لأى شىء نعيش ؟ كيف (على أى منهج) نعيش ؟

فإن لم تتلق الفطرة الإجابة الصحيحة على هذه الأسئلة فإنها تهيم فى ضلالة كضلالة الشاعر « الجاهلى » المعاصر، إيليا أبو ماضى :

جئت . . لا أعلم من أين ! ولكنى أتيت !

ولقد أبصرت قدامى طريقا . . فمشيت !

وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت !

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ . . لست أدرى ! !

وهو يعبر فى الحقيقة عن أزمة الجاهلية المعاصرة ، التى استبد بها القلق حين استبد

---

(١) سورة الجاثية : ٢٣ . (٢) سورة النمل : ٦٠ .

بها الضلال . . حين لم تستطع أن تجد الإجابة الشافية على أسئلة الفطرة . . فهامت فى الظلمات على الرغم من كل مالديها من « العلم » !

﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[1] .

فإذا فرغ العقل البشرى من مهمته الأولى ـ التى يترتب عليها منهج حياته فى الدنيا ومصيره فى الآخرة ـ فأمامه مهام كثيرة أخرى فى مقدمتها التعرف على الكون المادى ، وعلى خواص المادة ، من أجل استغلال ذلك فى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ـ وذلك ميدان العلوم سواء منها النظرية والتجريبية ـ والتعرف على الوحى الربانى لإدراك مراميه ، لإدارة الحياة بمقتضاه ـ وتلك هى العلوم الشرعية بما فيها الفقه والأصول وعلوم القرآن وعلوم الحديث ـ والتعرف على السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية ،من أجل إقامة الحياة متناسقة مع تلك السنن غير حائدة عن مقتضياتها ـ وذلك علم الاجتماع ـ والتعرف على التاريخ البشرى الذى هو مقتضى تعامل البشر مع تلك السنن خلال ما مر من الزمان ، للاعتبار به فى حاضر الأمر ومستقبله ـ وذلك علم التاريخ ـ ثم أى علم بعدذلك ينفع الإنسان فى حياته الدنيا وفى الآخرة . .

وذلك هو « التنوير » الحق ، النابع من الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة، والذى يعمل فيه العقل مهتديا بالهدى الربانى فلا يشطح ولايضل . .

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ لم تدرك ذلك . . ولم تدرك أن « التنوير » على المنهج الغربى كانت له أسبابه المحلية البحتة فى أوربا ، وكانت له نتائجه المغرقة فى السوء . .

لقد كانت « عقلانية » الغرب رد فعل لحجر الكنيسة على العقل عشرة قرون متوالية على الأقل هى ماسموه فى تاريخهم « القرون الوسطى المظلمة » وقد كانت مظلمة حقا ، ولكن لابسبب « الدين » كما تصورت أوربا فى أثناء هروبها من طاغوت الكنيسة ، وإنما بسبب « ذلك الدين » الذى اعتنقته أوربا محرفا لا تسيغه العقول ، فقررت الكنيسة أن تحجر على العقول لكى لاتكشف زيفه ومتناقضاته ، فقالت للناس آمنوا ولاتناقشوا . فلما احتكت أوربا بالمسلمين ، ورأت أنهم « يفكرون » وأن لهم نتاجا فكريا يملأ مئات الكتب بل ألوفها ، هفت نفوسهم « للتفكير » فاتهمتهم الكنيسة بالزيغ والهرطقة ،

---

(٢) سورة الروم : ٧ .

فكان رد الفعل المتحدى لطغيان الكنيسة هو نبذ الدين كله، وإعمال العقل بدلا من الدين، وهدم ماأسموه « خرافة الميتافيزيقا » ، والاعتماد فى كل شىء على مقولة العقل، سواء كان مما يدخل فى طوق العقل إدراكه أو لا يدخل ، وسواء كان مما يحل للبشر أن يختاروا فيه بعقولهم أو لايحل !

وقد « تنورت » أوربا ولاشك فى مجال العلوم ـ حين أخذت عن المسلمين المنهج التجريبى فى البحث العلمى ـ ونبذت خرافات الكنيسة « العلمية » التى كانت تفرضها على الناس باسم الدين ! ولكنها ضلت ضلالا شديدا فيما أسمته « العلوم الإنسانية » ـ أى العلوم التى يؤخذ العلم فيها من الإنسان لا من مقولات الدين ـ فأوصلها ضلالها إلى الإيمان بحيوانية الإنسان وماديته ، وإلغاء القيم العليا ، وتطبيق قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف أو يزيحه من الطريق ، بصرف النظر عن الحل والحرمة ، وبصرف النظر عن كون القوى صاحب حق أم صاحب باطل . . وثمرته مايجرى اليوم على الساحة الدولية من ظلم وحشى ، فضلا عن القلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة داخل المجتمع الغربى « المتنور » !

ولقد كانت « الميتافيزيقا » عندهم ضلالا صارفا عن الحق ، وصارفا عن العمل فى واقع الأرض ، لا لأنها فى ذاتها « غيبيات » . فالغيب حقيقة . ولكن لأن الفكر الكنسى اللاهوتى صبغها بصبغته فأفسدها كما أفسد الدين كله . وكان التنوير الصحيح يقتضى الإيمان بعالم الغيب على بصيرة، والإيمان بعالم الشهادة على بصيرة كذلك ، فتكتمل المعرفة ، ويتوازن « الإنسان » . أما « التنوير » الذى يجعل عالم الشهادة بديلا من عالم الغيب ، والعقل بديلا من الدين ، والعمل للدنيا بديلا من العمل للآخرة . . فلا يفترق كثيرا عن « الظلام » الأول ! فقد كانت جريمة الظلام الأول أنه اتخذ نصف الإنسان بديلا من نصفه الآخر ! فجعل عالم الغيب بديلاً عن عالم الشهادة، وجعل الدين بديلا من العقل ، وجعل العمل للآخرة بديلا من العمل للدنيا، فجاء الظلام الآخر ـ الذى يسمى « التنوير » ـ فأبرز النصف الذى كان مهملا من قبل ، وأهمل النصف الذى كان بارزا من قبل ، فارتكب نفس الجرم الذى عابه على غريمه من قبل ، ووقع الافتئات فى الحالين على كيان «الإنسان» .

ولقد كانت الحياة قد ركدت وأسنت فى بلاد العالم الإسلامى ، بما غشّى العقيدة من أمراض وانحرافات ، وبما اعترى السلوك من تفلت متزايد من مقتضيات لا إله إلا الله .

وكان الأمر فى حاجة إلى من يعيد الحيوية والنشاط للأمة لتستيقظ من غفوتها وتنطلق من جديد . . فكانت فى حاجة إلى العالم الربانى ، المجدد المجاهد، الذى يمسح آثار الفكر الإرجائى والفكر الصوفى، والتفلت من التكاليف ، والكسل والتراخى، ويعيد إلى عقيدة الإيمان بالغيب حيويتها وصفاءها وإيجابيتها بإزالة ماعلق بها من خرافة وتواكل وسلبية وتعلق بالخوارق ، كما يعيد الصفاء والحيوية والإيجابية إلى التعامل مع عالم الشهادة بإزالة ماعلق به من كسل وتراخٍ وقعود عن الأخذ بالأسباب ، فتعود للأمة انطلاقتها السوية المتكاملة المتوازنة التى صنعت بها من قبل ماصنعت من الأعاجيب ، من نشرٍ لعقيدة التوحيد فى أرجاء الأرض، وإنشاء حركة علمية فذة ، وحركة حضارية فريدة فى التاريخ . .

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ جنحت إلى النموذج الغربى المختل ، دون أن تفطن إلى مافيه من اختلال ، ودون أن تدرك فى الوقت ذاته أن الذى أوقع أوربا فى ذلك الخلل هو دينها المحرف وكنيستها التى طغت بذلك الدين ، وأنها لم تكن تملك دينا صحيحا ترجع إليه لتصحيح مسارها حين تنحرف عن الطريق.

* * *

وفى تلك المناسبة قالوا إن الحملة الفرنسية على مصر كانت مفتاح الخير لها وللمنطقة كلها من حولها ، وأنها كانت باعث « النهضة » التى بعثت « النور» و«الحركة » فى الظلام الراكد الذى كان يلف العالم الإسلامى كله !

وأما أن الحملة الفرنسية أيقظت مصر من سباتها وحركتها فحق لاشك فيه . . وأما أنها « نوّرتها » فأمر أقل مايقال فيه أنه يحتاج إلى مراجعة شديدة !

لو أن إنسانا نائما فى الطريق دهمته سيارة فخلعت بعض أوصاله ، وكسّرت بعض عظامه ، ولوت عنقه بحيث لم يعد يستطيع أن يحرك رأسه إلا فى اتجاه معين . . فماذا يقال عندئذ ؟!

أما أن السيارة أيقظته وحركته من مكانه فذلك أمر مؤكد !

وأما أنها نوّرته ورشّدته وهدته إلى الطريق السوى فأمر يفتقر إلى الدليل!

لقد كانت عناية الصليبية مركزة على نقطتين بعينهما فى العالم الإسلامى : اسطنبول والقاهرة . اسطنبول مركز الخلافة ، أى مركز القوتين الحربية والسياسية ، والقاهرة مركز

الإشعاع الروحى والثقافى للعالم الإسلامى ، المنبعث من الأزهر ، ومافيه من علوم دينية، وعناية باللغة العربية ، لغة القرآن .

وكانت عناية الصليبية بهذين المركزين تهدف إلى تقويض أركان الإسلام فيهما أولا ، فيسهل تقويض أركان الإسلام فى كل الأرض الإسلامية بعد ذلك. وبالنسبة لمصر كانت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون هى بداية التحرك الصليبى لمحاولة القضاء على الإسلام فى مركز الإشعاع الروحى والثقافي [1] .

وكان من بين وسائل الحملة محاولة إحلال « قانون نابليون » بالتدريج محل الشريعة الإسلامية فى صورة « أوامر » صادرة من « سر عسكر » نابليون بونابرت ، فى منشورات متلاحقة .

وكان من الوسائل كما يقول الجبرتى ـ الذى أرخ تأريخا تفصيليا للحملة ـ «بغايا الحملة » . . أولئك الساقطات اللواتى يسرن حاسرات فى الشوارع ، متهتكات متخلعات ، لإغراء النساء المسلمات « بالتحرر » [2] .

وكان من الوسائل كذلك إثارة النعرة الفرعونية عن طريق التنقيب عن آثار الفراعنة، وإبرازها ، وبث الاهتمام بها .

وهذه الأخيرة يحسب بعض الناس أنها بريئة ! وأنها قضية « علمية » بحتة !

ولكن مستشرقا صريحا قال فى كتاب « الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته» [3] : إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ماقبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ماقبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات !

فما الفرعونية ؟

---

(١) فى نفس الوقت أو قبله بقليل كان هناك تحرك موجه إلى دولة الخلافة ، ومحاولات للتنصير والتغريب ، تراجع فى كتب التاريخ التى تتناول فترة حكم السلطان مراد الثالث ، واتجاهه إلى « تحديث» دولة الخلافة .

(٢)انظر الجزء الثانى من كتاب « عجائب الآثار» للجبرتى (طبع القاهرة) صفحات ٢٣١، ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٣) انظر كتاب Near East : Culture and Society ، جمع وإشراف T.Cuyler (ت : كويلر) الترجمة العربية من منشورات « الألف كتاب » بالقاهرة .

إنها تشتمل ـ ولاشك ـ على تقدم علمى وفنى وتكنولوجى بارز . . ولكن ماوزنها فى النهاية ، وماوصفها فى كتاب الله ؟

إنها جاهلية . . إحدى جاهليات التاريخ الوثنية الحائدة عن الطريق ، المجافية للهدى الربانى ، المستحقة لغضب الله :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب . . ﴾[1] .

إنهاعبادة الفرعون ، وعبادة الأصنام من دون الله . .

وهى جاهلية تاب الله على أهل مصر منها حين دخلوا فى النصرانية أول مرة ، ثم تاب عليهم التوبة الكبرى حين دخلوا فى الإسلام ، لما جاءهم الإسلام .

فما إثارتها فى حياتهم من جديد ، إلا ـ كما قال ذلك المستشرق ـ لذبذبة ولائهم بين الإسلام وبين « حضارة » ماقبل الإسلام ، لتسهيل انزلاقهم فى النهاية بعيداً عن الإسلام !

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر هى رأس عملية « التغريب »، أو عملية « التخريب » المقصود لإبعاد مصر عن الإسلام ، بل عن العروبة كذلك ، فأين مواطن الخير المزعوم الذى انهمر على مصر انهمارا بواسطة الحملة الفرنسية ؟!

اليقظة من الغفوة ؟

نعم . . ولكن مع تقطيع أوصال الأمة بإبعادها التدريجى عن تراثها ودينها وأخلاقها وتقاليدها وذاتيتها ، ولىّ عنقها نحو الغرب ليتوغل الغزو الفكرى فى جنباتها ، وتغرق فى تبعية للغرب لايَعْلَمُ لها قرار . .

أما اليقظة السليمة الصحيحة فقد كانت وشيكة دون تدخل الحملة الصليبية ، فقد كانت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هى البشير الحقيقى بيقظة الأمة من غفوتها ، ومعاودة السير فى الطريق . .

---

(١) سورة الفجر : ٦ ـ ١٣ .

ولكن السيارة دهمت النائم فأيقظته . . نعم . . ولكنها قذفته بعيدا عن الطريق .

* * *

وحين بدأت العدوى تسرى من الانحراف الغربى إلى الأمة الضاربة فى التيه تغيرت «القيم» فى حياتها ، فلم تعد هى القيم التى قررها الله ـ التى يلتزم بها بعض الناس ويتفلت منها بعض الناس ـ إنما حلت محلها القيم التى وضعها «الإنسان» .

فإذا كان الله قد جعل القيمة الكبرى هى «التقوى» : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [1] بالمعنى الشامل للتقوى ، الذى يشتمل على الفضائل الإنسانية كلها ، التى ترفع الإنسان فى فكره ومشاعره وسلوكه إلى أعلى مايستطيع أن يصل إليه ، فإن «الإنسان» الذى ألّه نفسه بدلا من الله ، قال إن القيمة الكبرى هى القوة ، وهى العمل من أجل التمكين فى الحياة الدنيا بصرف النظر عن الآخرة ، وهى الاستمتاع بملذات الحياة الدنيا بصرف النظرعن المبادئ والأخلاق . . ولقد عاش الناس حتى رأوا مقدار الخلل الذى حدث فى حياة البشرية من جراء نبذ القيم التى قررها الله ، واتباع القيم التى قررها الإنسان .

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ لم تستطع أن تدرك مدى الخلل فى هذا المنهج ، وما يمكن أن يترتب عليه من آثار خطيرة فى حياة الناس ، فوق أنها ـ فى وهنها الذى كانت فيه ، والذى زاده الغزو الفكرى والسياسى والعسكرى والاقتصادى وهنا على وهن ـ لم تجد فى نفسها القدرة ولا الجلد ولا العزيمة التى اكتسب الغرب عن طريقها تقدمه المادى ، إنما أخذت الفساد الخلقى وحده، وعجزت عن اللحاق بالغرب فى ميدان قوته ، ففقدت التقوى والقوة جميعا وصارت مسخا مشوها لايقدر على شىء!

واضطربت كذلك المعايير ، حين صار مصدرها الهوى البشرى بدلا من الوحى الربانى. فراح قوم يقولون إن العفة ليست معياراً للفضيلة ! وإن الاختلاط، واتخاذ الأخدان ، وقيام علاقات لايقرها الدين ليس معياراً للرذيلة! وإن تعرية المرأة ماتشاء من جسدها ليس معياراً للانحلال الخلقى! وإن الحديث عن الله سبحانه وتعالى أو عن رسول الله ﷺ أو عن كتاب الله المنزل، أو عن السنة النبوية المطهرة بغير التوقير الذى

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

تعوده المسلمون، ليس معيارا للكفر أو ضعف الإيمان ! فالمعايير كلها نسبية ، ولا وجود لمعايير ثابتة أو مطلقة . . وما كان ينظر إليه فى وقت من الأوقات على أنه هو الفضيلة قد يبدو اليوم رذيلة ! وما كان ينظر إليه على أنه الواجب قد يكون اليوم أبعد شيء عن الواجب ! وماكان ينظر إليه على أنه خطأ قد يكون اليوم هو عين الصواب . . !

* * *

وسرت إلى الأمة فى تيهها كذلك عدوى « التطور » الذى يلغى فكرة الثبات فى كل شيء . . حتى الدين . . حتى القيم . . حتى الأخلاق !

أما قرأت دارون . . أو قرأت عنه ؟!

إن دارون يقول إن كل الكائنات قد تطورت ، وإن التطور هو قانون الحياة. وإن الإنسان لم يخلق منذ البدء على هيئته الإنسانية التى هو عليها الآن ، إنما تطور عن أحد القردة العليا ، وكان الشعر يغطى جسده كله ، وكان يمشى على أربع . . ثم تساقط عنه الشعر خلال ملايين من السنين، وانتصب واقفا على قدميه ، فأتيح لمخه أن يكبر حين صار رأسه مرتكزا على الجذع وليس معلقا فى الفضاء كبقية الحيوان ، فزاد ذكاؤه فتعلم وتكلم!!

وتخصصت صحف بعينها فى نشر الفكر الداروينى ، وبث فكرة الخلق الذاتى الذى لا دخل للمشيئة الربانية فيه ، وأن « الطبيعة » هى التى تخلق كل شيء ولاحد لقدرتها على الخلق ! وليس لها فى الوقت ذاته غاية محددة من وراء الخلق !!

ولم تدرك الأمة ـ فى التيه ـ أن « نظرية دارون » لم تكن تزيد فى الحقيقة عن كونها فروضا علمية ، وإن أطلق عليها أنها نظرية . . وأنها حتى لو كانت نظرية فقد كانت ـ وماتزال ـ قيد الإثبات ، ولكنها لم تصل قط أن تكون حقائق علمية نهائية . وأن قضية الخلق الذاتى قضية لابرهان لها على الإطلاق، لا عند دارون ولا عند غيره ممن ادعوها . وأن جوّ المعاندة الذى اتخذه العلماء فى أوربا تجاه الكنيسة منذ حرّقت العلماء أحياء لقولهم بكروية الأرض ، هو الذى جعل دارون يكسو نظريته ـ أوبالأحرى فروضه العلمية ـ بهذا الرداء الإلحادى الذى ينكر أثر المشيئة الربانية فى عملية الخلق [1] ،

(١) قال دارون إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل المشيئة الإلهية هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت !!

والذى ينسب الخلق لشىء غيبى خرافى اسمه « الطبيعة » مع أن هذا الرداء لم يكن من مستلزمات نظريته ـ على فرض صحتها ! ـ وأنه لولا هذا العناد مع الكنيسة فقد كان دارون قمينا أن ينسب الخلق والتطوير إلى الله ، فقد كتب رسالة إلى أحد أصدقائه (نشرت فيما بعد) قال فيها : لست أدرى لماذا يتهموننى بالإلحاد مع أنى أومن بوجود إله ! !

ولم تدرك كذلك أن شياطين الأرض هم الذى نشروا هذه النظرية ـ أو هذه الفروض العلمية ـ على نطاق واسع فى كل الأرض ، لهدف غير خاف بيّنوه صراحة فى «بروتوكولاتهم » حيث قالوا : « لقد رتبنا نجاح دارون ونيتشه وإن تأثير أفكارهما فى عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد »[1] . فحين يُنْفَى الخلق عن الله ،وحين يكون الإنسان متطورا عن أصل حيوانى، وحين لايكون لخلقه غاية ، فما مجال الدين؟ وما مجال القيم ؟ وما مجال الأخلاق . . المبنية كلها على أساس أن الإنسان كائن متفرد عن عالم الحيوان ، وأن أشد مايميزه عنه هو الوعى والإرادة والحرية ، وأن له طريقين لاطريقا واحدا كالحيوان ،وله القدرة على التمييز بين الطريقين والقدرة على اختيار أحد الطريقين :

﴿ ونفس وماسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾[2] .

* * *

وسرت كذلك عدوى الانغلاق فى حدود ما تدركه الحواس ، وحصر المعرفة فى حدود المحسوس ،أو المعقول الذى يشهد له المحسوس التجريبى، أى « العقلانية التجريبية » التى تنكر عالم الغيب ، وتهمل من عالم الشهادة ذاته مايخرج من دائرة التجربة المحسوسة . . فقام من يفسر الجن والملائكة بأنها انعكاس روح الشر وروح الخير عند الإنسان ، ولا وجود لها فى الحقيقة ، ويفسر معجزة انفلاق البحر بعصا موسى على أنها من أثر المدوالجزر، ويفسر الطير الأبابيل على أنها جراثيم الجدرى . . وراح غيره

---

(١) البروتوكول رقم (٢) ـ انظر الترجمة العربية للبروتوكولات لمحمد خليفة التونسى ـ طبع الدار السعودية للنشر ـ ص ١١٣

(٢) سورة الشمس : ٧ ـ ١٠ .

ينكر القيامة والبعث والحساب والجزاء ، وراح ثالث ينكر الوحى والرسالة ، وراح غيره يقول : للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللتوراة والإنجيل أن يحدثانا عنهما كذلك ، ولكن هذا وذاك لايثبت لهما وجودا تاريخيا ! !

* * *

وفى التيه تنكرنا لتاريخنا وأمجادنا ، ونظرنا إليها ـ فى أحسن الأحوال ـ على أنها أحداث زمان ولّى ولن يعود . . وفى بعض الأحيان على أنها أحداث هامشية لاوزن لها فى خط سير التاريخ . . وفى بعض الأحيان على أنها أحداث مخزية يتنصل من الارتباط بها « المثقف » الحق . . والمتحرر الحق . . والمعاصر الحق . . وفى جميع الأحيان على أنها أحداث ساذجة ليس فيها الذخر الحى المتدفق ، الذى يوجد فى أحداث الغرب وتواريخه ! !

ولاشك أن الغرب كان هو البارز فى صفحة الأحداث يومئذ ، وهو القوى المتمكن الفعال المؤثر ، والأمة الإسلامية فى ضعفها وتخاذلها وانحسارها مهمشة مغلوبة على أمرها فى الواقع الحى الموار ، ينطبق عليها قول الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيمٌ . . . ولايستأذنون وهم شهود !

نعم ! ولكن ماعلاقة هذا بالتاريخ الماضى وأمجاده ؟! أتتغير حقائق التاريخ الماضية الثابتة الموثقة بتأثير الحاضر السيئ ؟! أتمّحى أمجاد أمة بسبب انتكاس جيل من أجيالها ؟!

حقيقة إن التغنى بأمجاد الماضى على سبيل التعويض النفسى عن الواقع المنحسر ظاهرة مرضية ، لاتفترق كثيرا عن تعاطى المخدر للهروب من الواقع السيئ الذى يعجز الإنسان عن تغييره ، فيهرب منه فى سبحات الخيال . .

ولكن الأمر يمكن أن يكون ظاهرة صحية لو سار فى اتجاه آخر . . ذلك أن أمجاد الماضى حقائق مشهودة وليست سبحات من الخيال ، فإذا استخدمت ـ تربويا ـ لحفز الهمم المتقاعسة ، وإحياء العزة المتهاوية ، فهى رصيد حىّ يصلح لعلاج حالة اليأس التى أصابت المسلمين من جراء الهزيمة العسكرية والهزيمة النفسية . ولكن دعاة الغزو الفكرى وقفوا بالمرصاد لأى محاولة من هذا النوع ، كأنما يخشون أن تؤتى تلك المحاولات

ثمارها ، فيعود المسلمون إلى ذوات أنفسهم التى هجروها فى وهلة الانبهار ، ويبدءوا مسيرة جديدة على هدى ذلك الماضى المجيد الذى عاشوه عدة قرون . . والغريب فى الأمر أن موقفهم ذلك لم يكن صادرا من عند أنفسهم ! فقد كانت كتابات المستشرقين تصدر النغمة أول مرة ، فيتلقفها دعاة الغزو الفكرى ، ويرددونها بلا وعى ـ أو ربما بوعى ! ـ لتخذيل كل من يحاول إعادة الأمة إلى مجدها القديم !

وبدلا من ذلك كان التوجيه إلى أمجاد أوربا ! انظروا إلى التقدم العلمى ! انظروا إلى التقدم الحضارى ! انظروا إلى الرقى الفكرى ! انظروا إلى الديمقراطية ! انظروا إلى الحقوق السياسية ! انظروا إلى الكرامة التى يتمتع بها الإنسان !

وأما التقدم العلمى ، والتكنولوجى ، والمادى ، والكرامة التى يتمتع بها الإنسان فى المجتمعات الغربية فقد كانت كلها حقيقة . . أما الوزن النهائى لهذه « الحضارة » فقد كان أمراً مختلفا كل الاختلاف !

ولكن الأمة ـ فى التيه ـ لم تستطع أن ترى السلبيات فى « الحضارة » الغربية . فالعين المبهورة لاترى إلا الأضواء ، وتعجز عن رؤية السواد الذى يحجبه الضوء اللامع ! كما أن دعاة الغزو الفكرى كانوا يوجهون تلك العيون المبهورة دائما إلى الأضواء ، ويزجرونها زجرا أن تنقب بين الأضواء لتكتشف اللطخ السود !

لقد كان السواد الأعظم الذى يلقى ظله على العالم الإسلامى ـ والذى ينبغى أن يكون المسلمون أول من يحس وطأته ـ هو الاستعمار ، ومايرتكب ذلك الاستعمارمن فظائع ، ومايوقعه بالمسلمين من إذلال .

ولقد كان الاستعمار هو التكذيب الفعلى لكل دعاوى الغرب فى رفعة قيمه وإنسانية حضارته وإيمانه الحقيقى بما يرفعه من شعارات . . وكان واقعه الأسود قمينا أن يوقظ المسلمين من وهلة انبهارهم إلى حقيقة تلك الحضارة الزائفة ، الموغلة فى الأنانية ، المسفّة فى وجدانها « الإنسانى » إلى الحضيض ، وأن يعودوا إلى أمجاد تاريخهم المهجورة ، ليقارنوا بين حركة الفتح الإسلامى والاستعمار الصليبى (الذى أخفيت صبغته الصليبية كما ألمحنا من قبل) ليعرفوا الفارق بين الأمة الربانية ، والمنهج الربانى ، والأخلاق الربانية، وبين مناهج الشياطين ، وإن كانت بشرتهم بيضاء ، وملابسهم نظيفة ، وألفاظهم منمقة ، وعلومهم فائقة !

وإذا كان الاستعمار - بكل ظلماته ومظالمه - لم يوقظ الأمة المبهورة من غفلتها ، ولم يخرجها من تيهها ، ولم يكشف لها سوءات تلك الحضارة الزائفة، فلم تكن الأمة لتدرك - من باب أولى - أن « أخلاقيات » الغرب ليست أخلاقيات حقيقية نابعة من إيمان حقيقى بالقيم العليا التى يكثرون الحديث عنها فى آدابهم ، إنما هى أخلاق نفعية ، تمارس بقدر ماتجلبه من النفع لأصحابها ، ولكنها تتذاوب إذا تعارضت مع «المصلحة» . والمصلحة مرتبطة بالمنفعة ، وليست مرتبطة بصلاح البشرية ، أو إصلاح «الإنسان» !

* * *

وفى التيه اتخذنا قادة أوربا كأنهم قادتنا ! ومفكرى أوربا كأنهم مفكرونا ! وأدباء أوربا كأنهم أدباؤنا ، فترنمنا بأسمائهم ، ورددنا كلماتهم ، واتخذنا شعاراتهم ، وحفظنا تواريخهم ، فى الوقت الذى أغفلنا فيه ذكر قادتنا ومفكرينا وأدبائنا ، وجهلنا كل شىء عنهم ، حتى الصحابة رضوان الله عليهم ، حتى الوقائع الكبرى التى جرت للمسلمين الأوائل ، وكتبت تاريخ هذه الأمة بحروف من النور الوهاج !

ونسينا حركتنا العلمية التاريخية ، فلم ندرك أن المسلمين هم الذين أنشئوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، وهم الذين اكتشفوا كروية الأرض وقاسوا أبعادها ، وهم الذين اكتشفوا الدورة الدموية ، وهم الذين رسموا الخرائط الأولى للعالم ، وهم الذين حددوا مواقع الكواكب ومنازلها ، وهم . . وهم . . وهم . . وخيل إلينا أن العلم كله بدأ فى الغرب ، وبزغ من عبقرية الغرب ، وأنه لاعبقرية إلا فى الغرب !

ونسينا سمات حضارتنا . . وأنها الحضارة التى تعاملت مع الإنسان كله : جسمه وعقله وروحه ، فى شمول وترابط وتوازن ، الحضارة «الإنسانية» الحقيقية ، التى فتحت قلبها للبشر كلهم بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وحتى عقائدهم . . بينما حضارة الغرب حضارة للرجل الأبيض وحده فى عنجهية كريهة لاتفئ قط إلى المفهوم الربانى :

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[1] .

* * *

وفى التيه تحول الكتاب المنزل إلى « تراث » . .

تراث ورثناه من آبائنا وأجدادنا ، كانوا ـ هم ـ يلتزمون به . ولكن لا إلزام له علينا ! نحن أمة أخرى وجيل آخر ! لسنا نحن المخاطبين به ، ولا المطالبين بتنفيذ مافيه . غاية تعلقنا به ـ إن تعلقنا ـ أن نطرب لمن يترنم به ، وتهتز أسماعنا لجرسه . . ولكنه ليس موضع التدبر ، ولا التفكر ، ولاموضع الاستمداد فى شئون الحياة اليومية ، ولا الحياة الفكرية ، ولا الحياة الاجتماعية ، ولا الحياة الاقتصادية ، ولا الحياة السياسية . . فتلك كلها صار لها مصدر آخر . . هناك . . عند القوم الذين لايتكلمون العربية . . ولا يؤمنون بالقرآن !

* * *

ولم ينج عالم الأدب من التيه . .

وهل الأدب إلا التعبير عن كوامن النفس وخطرات العقل وتجربة الإنسان فى الحياة ؟

وحين تكون هذه كلها ساربة فى التيه ، فكيف يكون التعبير عنها فى صورة أدبية أو فنية . . إلا أن يكون أدب التيه ، وفن الضياع ؟ !

كان أول التيه أننا حملنا أدبنا العربى كله فوضعناه على الميزان الغربى ، فاتضح لنا ـ ويالللأسف ـ أنه ليس عندنا أدب !

شعرنا كله ـ أو جلّه ـ يندرج تحت بند واحد من بنود الشعر اليونانى ، الذى هو أصل الأصول فى فن القول وفن الفكر وفن الحياة . . ذلك البند هو « الشعر الغنائى » Lyrical Poetry » الذى كان الرعاة يتسلون بغنائه وهم يرعون أغنامهم ، فيبثون فيه أشواقهم وأحزانهم وذكرياتهم وهمومهم الذاتية . . ولكن ليس عندنا ملحمة ، وليس عندنا مسرحية شعرية . . وليس عندنا . . وليس عندنا . . والمأساة الكبرى أنه ليس لدينا فى أدبنا مأساة !

المأساة اليونانية هى أدب الدنيا والدين . هى عصارة التجربة البشرية العميقة

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .

الواصلة إلى الأغوار . . أغوار النفس البشرية ، وأغوار السنن التى تحكم حياة الإنسان على الأرض . . وخلوّ أدبنا منها عار مابعده عار !

والمأساة اليونانية فى حقيقتها ـ مع كل « أغوارها » ودقتها وبراعتها فى الأداء الفنى ـ هى صراع البشر مع الآلهة !

الإنسان يريد أن يثبت وجوده . . يريد أن يبرز . . يريد أن يكون فاعلا مريدا . . يريد أن يبنى ويصنع البطولات والأمجاد والخوارق (يريد فى الحقيقة أن يكون إلها) والآلهة تغار من الإنسان ، فتسعى إلى وضع العقبات فى طريقه ، وفى النهاية تحطمه حين يصر على عزيمته ويرفض الانصياع لكيد الآلهة . . وعندئذ تحدث المأساة !

أرأيت ؟!

وأدبنا ليس فيه مأساة . . لأننا أمة سطحية لاطاقة لها بالوصول إلى الأغوار . . تعيش على هامش الحياة ولاتغوص فى أعماقها . . !

وقد كنت أَدْرُسُ الأدب الانجليزى فى الجامعة ، وكانت الأصول الإغريقية تدرس لنا باعتبارها المنابع التى كان يستقى منها الأدب الأوربى فترة من الزمن غير قصيرة ، وهى كذلك المعايير التى كان يستقى منها النقاد نظرتهم إلى الأدب وتقويمهم له ، وكنت فى الوقت ذاته أستمع إلى مايلوكه «نقادنا» عن الأدب العربى فى جملته ، فأعجب فى نفسى . . كيف يمسخ الناس إلى هذا الحد ؟!

ليس دفاعا عن الأدب العربى . . ماكان فيه ومالم يكن . . فليست هذه هى القضية ! القضية هى نحن : كيف ذابت شخصيتنا إلى هذا الحد ، فلم نعدننظر بعيوننا ، إنما نستعير عيون غيرنا لننظر بها إلى أنفسنا ؟!

ولم أكن أديبا ولاناقدا . .

ولكن عنّت لى ملاحظة فى أثناء دراستى للأدب الانجليزى ، وهو نموذج للأدب الأوربى عامة ، مع وجود الفوارق الذاتية بطبيعة الحال بين شعب وشعب ، وأديب وأديب . .

إن فكرة الصراع بين البشر والإله (أو الآلهة كما صورتها وثنية اليونان) عميقة جدا فى الأدب الغربى فى جميع أطواره .

كانت واضحة جدا فى الأساطير اليونانية ، وبخاصة أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة ، التى تروى أن الإله زيوس ـ إله الآلهة ـ خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض وسواه على النار المقدسة (ترمز فى الأسطورة إلى المعرفة) ثم أهبطه إلى الأرض وحيدا فى الظلام (يرمز الظلام إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس (لعله يرمز إلى الشيطان والله أعلم) فسرق له النار المقدسة من الإله (يرمز إلى كون الإنسان بدأ يتعلم) فغضب الإله على الاثنين معا ، « بروميثيوس» سارق النار المقدسة ، و«إيبيميثيوس » الإنسان الذى خلقه من طين الأرض ، فوكل ببروميثيوس نسرا أكل كبده طوال النهار ، وفى الليل تنبت له كبد جديدة فيأتى النسر فى الصباح ليأكل كبده طوال النهار . هكذا فى عذاب أبدى . . أما إيبيميثيوس الذى عجز الإله عن استرداد النار المقدسة منه (يرمز ذلك إلى أن المعرفة لايمكن سلبها من الإنسان إذا حصل عليها) فقد أرسل إليه امرأة تسمى باندورا (ترمز إلى حواء) لتؤنسه فى وحدته ، ولكنه أرسل معها صندوقا هدية ،فلما فتح الصندوق إذا هو مملوء بالشرور ! فقفزت الشرور من الصندوق وملأت أرجاء الأرض !!

هكذا تصور الأسطورة الإغريقية العلاقة بين الإنسان وبين الله ! فالعلم ليس نفحة ربانية أفاضها الله على الإنسان من فضله : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ [1] . . ﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ [2] . . ﴿ خلق الإنسان علمه البيان﴾ [3] إنما هو مغتصب اغتصابا من الإله ! والإله ـ بدافع الغيرة (نستغفر الله) ـ لايريد للإنسان أن يتعلم ، ولا أن ينتفع بعلمه ، فينتقم منه هذا الانتقام الفظيع !

تلك هى بذرة « المأساة » فى حياة الإنسان كما تصورها الأسطورة الإغريقية . .

وتلك ـ رعاك الله ـ هى التى تنقص الأدب العربى والأمة العربية !

ولقد تتبعت أثر الأسطورة الإغريقية فى الأدب الأوربى بعد أن نزعت أوربا سلطان الكنيسة من حياتها ، وعادت إلى الأصول الإغريقية تستمد منها مفاهيم حياتها منذ عصر النهضة ، فوجدت عجبا !

عادت أوربا ـ فى الأدب على الأقل ـ إلى الوثنية الإغريقية فى فترة الرومانسية فعبدت

---

(١) سورة البقرة : ٣١ . (٢) سورة العلق : ٥ .

(٣) سورة الرحمن : ٣ـ٤ .

«الطبيعة» إلها جديدا بدلا من إله الكنيسة الذى استعبدت باسمه الناس . . فنشأ فى النفس الأوربية صراع بين الإنسان وذلك الإله الجديد ! وتحدثوا فى كتاباتهم عن « صراع الإنسان مع الطبيعة » وقالوا : « الإنسان يقهر الطبيعة » !

ثم ألهت أوربا الإنسان بدلا من الله . . فعاد الصراع مع الإله الجديد ! إما صراعا نفسيا داخل الإنسان الفرد ، وإما صراعا اجتماعيا بين بعض البشر وبعض !

لاسلام ! لابد من وجود الصراع . .

وهو ليس ذلك الصراع الذى أذن الله به وباركه، صراع الخير ضد الشر الذى قال الله فيه : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾[1] ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز﴾[2] .

إنما هو الصراع بين الإنسان وبين الله !

وذلك يارعاك الله ـ هو الذى ينقص الأدب العربى ليكون أدبا عالميا له أغوار !

ثم تخبطت أوربا فى آدابها فتخبطنا معها . . فقط من أجل ألا يفوتنا التخبط معها !

ظهرت السريالية ـ بعد شطحات فرويد فى « العقل الباطن » و«اللاشعور» ـ فقلنا لابد أن يكون لدينا سريالية . . ياللعيب . . كيف لا « نتَسَرْيَل » معهم ؟!

وظهر اللامعقول ، فقلنا لابد أن يكون لدينا أدب لامعقول ! وأنشأ أحد أدبائنا «الكبار» مسرحية « لامعقولة » سماها « ياطالع الشجرة » كتب لها مقدمة قال فيها : كتبت هذه المسرحية على طريقة اللامعقول لكى لايقال عنا إنه ليس لدينا أدب لامعقول!

ياعجبا ! لقد تخبطت أوربا فى « نهضتها » فلجأت إلى « العقلانية » المسرفة انتقاما من حجر الكنيسة على العقل عشرة قرون كاملة ، فأدخلت العقل فى كل شىء سواء كان للعقل فيه مجال أم لم يكن . . ثم وجدت ـ بعد لأى ـ أن العقل لم يحل لها كل مشاكلها بل أنشأ مشاكل جديدة حين أُقحم فيما لاطاقة له به . . فقفزت إلى

---

(١) سورة البقرة : ٢٥١ . (٢) سورة الحج : ٤٠ .

« اللامعقول » فرارا من العقلانية المسرفة . . أما نحن فمابالنا ؟! لماذا نلجأ إلى اللامعقول؟!

ثم ظهرت الحداثة . . فقلنا لابد أن يكون لنا أدب حداثى . . ياللعار! أيكون أدبنا بلا حداثة ؟! ونكون متخلفين ؟!

والجوهر الحقيقى للحداثة هو تحطيم « التراث » والانفلات منه ولو إلى لاشىء ! المهم أن نحطم التراث ـ الذى يمثل الأغلال ـ ونخرج إلى الحرية والانعتاق . . وأوربا حين تصنع ذلك فهى حرة تصنع فى نفسها ماتشاء . وقد يكون لها عذرها ، فالتراث عندها هو الكنيسة وخرافاتها وطغيانها وجبروتها ، وتعطيل قوى الإنسان عن العمل المثمر فى واقع الأرض . فتحطيم « ذلك » التراث والانفلات منه أمر « معقول » . .

أما المسلم حين يحطم تراثه الربانى ، فماذا يبقى له إلا الضرب فى التيه ؟!

* * *

هكذا كان حجم التيه الذى دخلت فيه الأمة . . واسعا شاملا ، شمل كل جوانب الحياة . . وبعبارة أخرى شمل الانحراف كل مقتضيات لا إله إلا الله ، فإن مقتضيات لا إله إلا الله تشمل كل جوانب الحياة [١] . .

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له . . ﴾[٢] .

ولانقول بطبيعة الحال إن كل الناس قد لفّتهم الدوامة ، وإنه لم يبق فى الأمة من يدرك مقدار الخلل الذى أصابها حين دخلت فى التيه . .

كلا ! إن هذا لم يحدث قط ، ولايمكن أن يحدث :

« لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لايضرهم من خالفهم . . »[٣] .

ولكن الدوامة كانت من العنف بحيث قذفت المعارضين لها فأقصتهم عن مركز التوجيه ، وهمّشتهم على جوانبها ، وأبرزت أولئك الذين تشربوا السم كله فجعلتهم هم

---

(١) انظر إن شئت فصل « مقتضيات لا إله إلا الله فى الرسالة المحمدية » من كتاب « لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة » .

(٢) سورة الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ . (٣) أخرجه الشيخان .

القادة الذين يقودون . . فى جميع الميادين . . فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر والأدب والفن . . وفى كل شيء .

وبدا لفترة من الوقت أن الأمة قد قطعت مابينها وبين دينها ، ومابينها وبين تراثها ، ومابينها وبين تاريخها . . وأنها اتخذت طريق أوربا . . ولن تعود!

ولكن الحقيقة أن الأمة كانت تعيش بشخصية مزدوجة . .

فإذا استثنينا أولئك الذين انسلخوا تماما من دينهم وتراثهم وتاريخهم، وأعلنوا انسلاخهم ، وتفاخروا به ليكونوا ـ فى وهم أنفسهم ـ « مفكرين أحرارا » كمفكرى أوربا الأحرار . . Free Thinkers [1] .

وإذا استثنينا من الجانب الآخر الذين ثبتوا فى مكانهم على وعى بدينهم وتراثهم وتاريخهم ، وتشبثوا به ، ولم يتزحزحوا عنه ، وإن غُلبوا على أمرهم فصمتوا ، أو ضاعت أصواتهم فى هدير الدوامة المدوى ،الذى لايكاد الإنسان يسمع فيه حتى نفسه!

إذا استثنينا هؤلاء وهؤلاء وهم قلة من الطرفين ، فإن مجموع الأمة ـ الذى لفه التيه ـ كان يعيش بشخصية مزدوجة : بقايا الدين فى العواطف والوجدان وبعض ألوان السلوك ، والفكر الوافد بضغطه العنيف المتوالى يَحْرِفُ الأفكار والمشاعر والسلوك ، ويجعل الصورة أمام الأعين مهتزة على الدوام ، لاتتبين ملامحها للرائى ، ولايستيقن تفصيلاتها . .

ولقد عاشت أوربا من قبل فترة مماثلة ، مع فارق الدين ، وفارق التصورات ، وفوارق السلوك . .

فحين اهتز سلطان الكنيسة ولم تعد له تلك السيطرة التى كانت له على أرواح الناس من قبل ، وبدأت « النهضة » التى ارتدت فى مفاهيمها إلى التراث الإغريقى ، أو الرومانى الإغريقى Greco - Roman ، كان الناس ـ فى مجموعهم ـ يعيشون بشخصية مزدوجة : بقايا دين ، وبدايات انسلاخ من الدين . .

ولكن هذه الحالة لايمكن أن تستمر . .

---

(١) Free Thinker فى المعاجم الانجليزية ليس معناها « المفكر الحر » وإنما معناها « الملحد » !

فرويدا رويدا لابد أن تتغلب إحدى الشخصيتين على الأخرى حتى تمحوها، أو فى القليل تخفيها فى ظلها . .

وحدث ذلك فى أوربا بالفعل . وكما كان متوقعا من أحوال أوربا ظلت الشخصية المنسلخة من الدين تقوى وتقوى ، حتى محت الشخصية المتدينة تماما ، أو فى القليل أخفتها فى الظل . .

وكان المتوقع للأمة الإسلامية أن تمر بذات الظاهرة ، ظاهرة ازدواج الشخصية لفترة من الزمن ، ثم تتغلب إحدى الشخصيتين على الأخرى فى النهاية .

وبالفعل خاضت الأمة التجربة ، وقطعت فيها شوطا غير قصير. .

ثم بدأت إحدى الشخصيتين تتوارى . . وبدأت الأخرى تظهر وتبرز . ولكن الأمر كان على غير ماتوقع الكثيرون ! كان مخالفا تماما لما وقع فى أوربا . . !

كانت الشخصيه التى بدأت تبرز هى الشخصية العائدة إلى الإسلام !

الصحوة المباركة

جاءت الصحوة على غير توقع من كثيرمن الناس ، سواء منهم من كان يتمناها فى قرارة نفسه ، ومن كان يرجو ألا تحدث أبد الدهر !

كانت الأمة قد أوغلت كثيرا فى التيه ، وبعدت كثيرًا عن خط الإسلام .

فأما الصليبيون والصهيونيون ، الذين كانوا يخططون منذمائتى سنة على الأقل لإبعاد الأمة عن دينها فقد كانوا يظنون أنهم أفلحوا تماما فى القضاء الأخير عليها . . وكان لديهم مايسوّغ هذا الظن مما يرون من أحوال الأمة، وسرعة انسلاخها من كل مايمت للدين بصلة ، حتى الشعائر التعبدية لم يعد يؤديها إلا سكان الريف ، والمتقدمون فى السن من أهل المدينة، أما الشباب ، الذى أقبل على « المدنية » و«التقدم » و « التحرر » فقد هجر المسجد ـ كما أسلفنا ـ وصار همه تتبع « الفنانين » و«الفنانات»، وأغانى الميوعة والرخاوة ، وأفلام السينما ، فوق انشغاله «بالصداقات » البريئة وغير البريئة مما عجت به الساحة بعد « تحرير المرأة» . .

ولم تكن الطامة فى انحراف السلوك وحده ، ولكن الأخطر من ذلك كان انحراف التصورات، فانحراف السلوك وحده مع صحة التصور والاعتقاد يمكن أن يرجع صاحبه فيصحح سلوكه ، فى لحظةٍ يستيقظ فيها ضميره، فينتهى عن المعاصى ويستقيم . أما الذى فسد تصوره واعتقاده فلماذا يرجع ، وهو يرى ماهو فيه صوابا لاخطأ فيه ، ويرى ـ على العكس ـ أن الخطأ فى العودة إلى الدين ؟

وأما أذيالهم من « المثقفين » الذين تشربوا سمومهم ، وفرحوا بها ، وراحوا يفاخرون بأنهم أصبحوا « كالخواجات» فى كل شىء . . تصوراتهم واعتقاداتهم وأنماط سلوكهم . . فقد ظنوا ـ كما ظن سادتهم ـ أن لن تقوم للإسلام قائمة بعد ذلك أبدا ،

وأنهم هم ـ طلائع التحول ورواده ـ قد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ، وأنهم هم القيادة الجديدة للمجتمع ، التى ستقود المجتمع كله إلى النور .. وتخرجه من الظلمات . .

وكان ظن هؤلاء وهؤلاء مبنيا أساسا على التجربة الأوربية . .

فتلك أمة كانت متدينة فى يوم من الأيام ، وكان الدين حياتها وفكرها ومرجعها الذى ترجع إليه فى أمورها . . ثم تحولت عنه ، ونسيته كأن لم يكن قط ، وأحالته إلى متحف التاريخ ، وَوُلِدَتْ ميلادا جديدا لاعلاقة له بأوضاعها السالفة . .

وهذه أمة كانت متدينة كذلك فى يوم من الأيام ، وكان الدين حياتها وفكرها ومرجعها . . ثم أخذت تتحول عنه بذات الوسائل وذات الأفكار التى جعلت أوربا تخرج من دينها ثم تنساه . . فما الذى يمنع أن تكون النتيجة هنا مثل النتيجة هناك ؟!

وهنا أخطئوا التقدير . . !

نقول ابتداء إن الله شاء للأمة الإسلامية غير ماشاء لأوربا . . والذى يكون بالفعل هو مايشاؤه الله ، لامايشاؤه العبيد . .

ولكنا نقول كذلك إن قدر الله يجرى من خلال سنن وأسباب . .

فما الذى اختلف فى الأوضاع هنا عن الأوضاع هناك ، فجعل النتيجة هنا غير النتيجة هناك ؟!

أمور كثيرة فى الحقيقة ، لم يدركها الصليبيون والصهيونيون وأذيالهم من «المثقفين» . . ولم تلتفت إليها الأمة ذاتها إلا بعد أن بدأت طلائعها تخرج من التيه . .

كان هناك أولا فارق الدينين . . وهو عظيم .

هنا دين الله الحق ، الذى حفظ الله كتابه وسنته ، ومهما انحرف الناس عنه فى وقت من الأوقات ففى إمكانهم أن يعودوا إليه ، لأن المرجع موجود ، لم يحرف ولم يبدل ، ولم تمتد إليه يد بالتغيير ؛ وهناك دين لم تعرف أوربا أصله فى واقعها القديم ولا فى واقعها الحديث ، فالكتاب المنزل حُرف وبدل ، واستبدلت بعقيدة التوحيد المنزلةمن الله على نبيه عيسى عليه السلام عقيدة أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، جعلت الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحدا ، وأنشأت خليطا متناقضا لاتسيغه العقول ، فضلا عن فصل

العقيدة عن الشريعة وتقديم الدين للناس عقيدة بغير تشريع .

وكان هناك ثانيا فارق الرجال الذين حملوا الدين وعلموه للناس .

فهنا علماء وفقهاء ، ورجال صالحون أتقياء ، يدعون إلى دين الله بالقدوة والموعظة الحسنة والعلم والفقه ، فيتعلم الناس الدين على أيديهم ، ويقتدون بهم على بصيرة ، ويمارسون الدين على وعى بأن هؤلاء الرجال معلمون ومربون ، وليسوا وسطاء بين العبد ومولاه . . وهناك « رجال دين » . . كهنة يقومون بالوساطة بين العبد والرب ، ويحتكرون تفسير الدين، فتظل العقول مغلقة عن حقيقة الدين ، لاتعرف إلا مايقوله لها هؤلاء . . وهؤلاء لايقولون مايشفى الصدور ، ويحتفظون لأنفسهم بمكانة زائفة فى نفوس أتباعهم على زعم أنهم هم الذين يعرفون « الأسرار » ، بينما الحقيقة أنهم لايزيدون علما بها عن أى شخص آخر ، لأنها ـ بطبيعتها ـ غير قابلة للفهم ، وغير قابلة للتصديق !

وكان هناك ثالثا فارق الواقع التاريخى . . وهو فارق ضخم .

فلدى المسلمين واقع تاريخى طبق فيه الدين بتمامه ، فكان أروع ماعرفته البشرية فى تاريخها كله . . ذلك عصر النبوة والخلافة الراشدة . ثم واقع تاريخى امتد بعده عدة قرون ، وقعت فيه انحرافات وتجاوزات ، ولكن بقى فيه من حقيقة الدين ما أنشأ حضارة رائعة ، وحركة علمية فائقة ، وتمكنا فى الأرض فى جميع المجالات : السياسية والحربية والعلمية والفكرية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية ، ملأ سمع الدنيا وبصرها ، ووعاه التاريخ . . وعند أوربا فى مقابل ذلك ـ باعترافهم ـ ظلمات القرون الوسطى المظلمة، المرتبطة فى حسهم بسيطرة رجال الدين وطغيانهم الروحى والمالى والسياسى والفكرى والعلمى . . وفى جميع الميادين .

وهذه الأمور وحدها كافية لجعل النتيجة هنا غير النتيجة هناك .

فالدين الحق فى يسره وبساطته ، ومخاطبته لكيان الإنسان كله : روحه وعقله وجسمه ، وشموله لكل جوانب الحياة ، غير الدين المحرف الزائف الذى يحاول اللاهوت تيسيره فلا يزيده إلا تعقدا وعسرا ، فضلا عن كونه يشغل جانبا واحدا من الحياة ويترك بقية الجوانب فى خواء .

والعلماء الفقهاء، المعلمون المربون ،غير الكهنة المغلفين بالأسرار المحجوبة عن

الناس والواقع المشرق الطويل ، غير الواقع المظلم الذى استمر عشرة قرون .

فحين يعود المسلمون إلى دينهم بعد فترة من انحرافهم عنه فلاعجب فى ذلك ، بل العجب ألا يعودوا إليه !

ومع وضوح الفوارق بين حال المسلمين وحال أوربا ، تلك الفوارق التى ترشح لاختلاف النتيجة هنا وهناك ، فإن الصحوة كانت مفاجأة عنيفة لكثير من الناس ! ذلك أنهم نظروا فقط إلى عوامل الهدم المبثوثة ـ التى جربت أول مرة فى أوربا فآتت ثمارها ـ فظنوا أنها ـ فى ذاتها ـ كفيلة بهدم أى دين فى الوجود !

فنشر النظريات « العلمية » الزائفة ، التى تحارب الدين والأخلاق والتقاليد، وإنشاء مجتمع لايمارس فيه الدين فى واقع الحياة ، ويطلق فيه العنان للشهوات لتستوعب طاقة الإنسان واهتماماته بحيث ينسى ربه وآخرته ، ووضع مناهج تعليمية لايذكر فيها اسم الله ولا اسم رسوله ﷺ ، وبث توجيهات فى وسائل الإعلام تزين للناس متاع الأرض وتشغلهم به عن الآخرة . . كل ذلك كان كفيلا ـ فى نظر المخططين ـ بالقضاءعلى بذرة الدين فى نفوس المسلمين ، وإخراجهم من تراثهم وتقاليدهم إلى غير رجعة!

ولكنهم لم يفطنوا إلى حقيقة بدت واضحة فيما بعد ، وهى أن البذور السامة التى ألقوها لتأكل جذور الدين لم تتعمق فى التربة الإسلامية كما تعمقت من قبل فى التربة الأوربية ، بسبب الفوارق الهائلة بين ماهنا وماهناك!

* * *

ولم تكن هذه وحدها هى الأسباب . . وإن كانت هذه وحدها ـ كما أسلفنا ـ كفيلة بجعل النتائج تختلف مابين ماهنا وماهناك . .

كانت هناك أسباب أخرى صاحبت الناس فى التيه ولكنهم لم ينتبهوا لها فى حينها . . ثم انتبهوا !

إن النظم المستوردة ، وإن « الزعماء » الذين استوردوا النظم لم ينجحوا فى حل مشكلة واحدة من مشاكل الأمة ، برغم كل الدعاية الكاذبة ، وبرغم الجهد كله الذى بذله الطبالون والزمارون . . !

حدث تقدم شكلى فى بعض الأمور . . ولكنه لايخفى الفشل الذريع فى سائر الأمور . .

خرجت جنود العدو ، ولكن نفوذه السياسى والاقتصادى لم يخرج ، وفى بعض الأحيان زاد !

تعلم الناس قشورا من العلم فى المدارس والجامعات، ولكن الهوة العلمية والتقنية بينهم وبين الغرب لم تنقص . . وفى بعض المجالات زادت عدة أضعاف !

تكونت جيوش « حديثة » ، ولكن سلاحها وذخيرتها فى يد الغرب ، هو الذى يقرر النوعية والمقدار ، وهو لايعطى إلا بالقدر الذى لاينشئ قوة حقيقية ، إنما يستنزف أموال المسلمين ، ويحتفظ لنفسه بالتفوق الجبار !

وامتلأت دور العرض وامتلأت البيوت بالبضائع « الاستهلاكية » التى تستهلك أموال الناس فى أدوات الترف ، أما الإنتاج الصناعى الذى يغنى الاقتصاد ، ويغنى الناس عن الاستيراد ، فبعيد جد بعيد ! بل زاد الاقتصاد تدهورا ، وهبطت العملات إلى القاع !

وفسدت الأخلاق . . لا فى مجال الجنس وحده كما يتبادر إلى الأذهان حين تذكر الأخلاق . . ولكن فى مجال القيم والمعايير ، فصارت القيم المادية هى المسيطرة على وجدان الناس، وصار النفاق والوصولية عملةمعتمدة فى المجتمع ، وصارت أمور الناس تقضى بالرشوة ، ولاتقضى إلا بالرشوة . . وصارت الخيانة هى الأصل ، والأمانة الاستثناء !

وأخيرا جاء العسكر ليحرقوا مابقى فى نفوس الناس من خير من أى نوع . . ويبذروا الشر بذرا فى الأرض كالشياطين . .

وفوق ذلك كله ضاعت فلسطين . .

* * *

يحسب بعض الناس أن الصحوة لم تكن إلا رد فعل لهذا الفشل فى جميع الميادين . . فشل النظم المستوردة و « الزعماء » المزيفين الذين صُنعوا على عين الغرب ، ونُصِّبوا ليقوموا بالإفساد فى بلاد الإسلام .

ولاينكر أحد أن هذا الفشل كان من المحفزات للصحوة . .

ولكن الناس ينسون أن الجذور الحقيقية للصحوة كانت سابقة على استيراد النظم

وفشل الزعماء . . فقد كانت الحركة التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لتصحيح العقيدة هى الباعث الحقيقى ليقظة العالم الإسلامى ، على الرغم من كل الجهود التى بذلت لمحاولة كبتها والقضاء عليها .

ولقد بدا ـ لفترة من الوقت ـ أن الدعوة قد حُصِرَتْ وسُدَّت عليها المنافذ فلم تعد قادرة على الامتداد . . ولكنها لم تكن دعوة ذاتية للشيخ محمد بن عبد الوهاب فى داخل الجزيرة العربية حتى يسدوا المنافذ عليها ويكتموها . . إنما هى هى الدعوة التى قال الله عنها : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . .﴾[1] .

دعوة تمتد بما أودع الله فيها من الحق ، وما أودع فيها من القوة ، وما أودع فيها من البيان ، يحملها قلبٌ مؤمن فتشتعل فى قلبه ، فتمد إشعاعها فى الآفاق . .

وحين يحاربونها فقد تسكن حركتها إلى حين . . ولكنها تعود فتؤتى أكلها بأمر الواحد القهار . .

* * *

جاءت الصحوة المباركة وهدفها أن تخرج الناس من التيه الذى غرقوا فيه، وتردهم إلى الطريق الذى تاهوا عنه فى وهلة الانبهار .

بل جاءت لتنفض ماكان قد تراكم من الغبش على طريق الدعوة قبل الهزيمة وقبل الانبهار .

جاءت لترد الدين صافيا كما نزل أول مرة ، بالرجوع إلى منابعه الصافية : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وسيرة السلف الصالح .

جاءت لترد الدين واقعا معيشا ، لامجرد وجدانات فى داخل القلب ، ولا مجرد كلمات تنطق باللسان . .

جاءت لتربى جيلا جديدا على مقتضيات لا إله إلا الله . .

مهمة صعبة ، ومشوار طويل . . فثمت فى الطريق عقبات وعقبات . .

إن العقبات القائمة فى وجه الصحوة ليست هى الحرب الخارجية وحدها كما يرى كثير من الناس . .

---

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ـ٢٥ .

حقيقة إنها حرب شرسة . فقد تجمع العالم كله اليوم لحرب الإسلام : الصليبية العالمية كلها ، والصهيونية العالمية كلها ، والشرك العالمى كله ، فضلا عن عملاء الصليبية الصهيونية فى داخل البلاد ، الذين يحاربون الدعوة بالحديد والنار . . بالسجن والتعذيب . . بالتشويش الإعلامى . . بكل وسائل الكيد التى تخطر على البال .

ولكن هناك عقبات أخرى لاتقل تعويقا للصحوة . . بل قد تكون أشد تعويقاً لها من تلك الحرب .

هناك الركام الذى كان قد تراكم فى طريق الدعوة قبل الغزو الصليبى الصهيونى ، من انحراف فى العقيدة ، وانحراف فى التصورات ، وانحراف فى السلوك ، جعل الإسلام غريبا فى أرضه ، كما أخبر الرسول ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ »[1] .

وهناك ركام الغزو الفكرى الذى ضلل الناس فى مرحلة التيه ، وتوغل فى جميع الاتجاهات .

وهناك ثقل « الأمر الواقع » فى حس كثير من الناس ، وتصورهم أنه غير قابل للتغيير .

وهناك عدم الإدراك الكامل من جانب الصحوة لمهمتها على وجه التحديد ، ولترتيب الأولويات فى مشوارها الطويل . .

وذلك فضلا عن تشرذم الجماعات القائمة بالدعوة ، وتفرقها وتخاصمها ، وغياب القيادة الكبيرة التى تجمّع الشمل وتقود المسيرة .

ولكن الصحوة ـ على الرغم من ذلك كله ـ قد قامت بجهد كبير . .

* * *

لقد وعى شباب الصحوة الخطوط العريضة على الأقل لحقيقة المشكلة والخطوط العريضة لحقيقة الحل . .

لم يكن ماحل بالعالم الإسلامى من جمود وضعف وتخلف وانحسار نتيجة للتمسك

---

(١) أخرجه الشيخان .

بالدين ، كما أوهموا الناس ، وكماصدقهم كثير من الناس فى فترة التيه ! إنما كان السبب بعد الناس عن حقيقة الدين !

ولم يكن الحل هو نبذ الدين واتباع الغرب فيما ذهب إليه من مذاهب. إنما كان الحل هو العودة إلى الدين !

أصبحت هذه القضية ـ فى صورتها العريضة على الأقل ـ واضحة تماما فى حس الصحوة الإسلامية ، ومنها أخذت تتسرب إلى جمهور كبير من الناس، فلم يعودوا يصدقون مايقوله لهم دعاة الغزو الفكرى ، ودعاة العلمانية، ودعاة « التنوير » على منهج الغرب ، بل صاروا يصرفون سمعهم عنهم ، ويتجهون إلى النداء الإسلامى ، وصارت شكوى أولئك أن الكتاب الإسلامى هو أروج الكتب فى التوزيع ، وأن الدروس الإسلامية والمحا ضرات الإسلامية هى أكثف التجمعات فى كل مكان !

وأدرك شباب الصحوة جيدا أن لا إله إلا الله التى تدخل الجنة ، وتغير الواقع المنحرف ، وتنشئ الواقع المنشود ، ليست هى مجرد الكلمة المنطوقة باللسان ! إنما هى الكلمة ، واليقين الذى يملأ القلب ، والعمل بمقتضى لا إله إلا الله .

وأدرك شباب الصحوة أن تربية الروح واجبة ،ولكن لا على طريقة السبحات الروحية المهومة ،التى تستهلك الوجدان الدينى دون أن تتحول إلى عمل وجهاد لإزالة المنكر وإقامة المعروف فى مكانه .

وأدركت المرأة المسلمة فى كثير من بقاع العالم الإسلامى أن الحجاب جزء من دينها فالتزمت به ، على الرغم من كل الدعاية المضادة ، والدفع المضاد ، الذى يقوم به دعاة الغزو الفكرى ، والمنحلون والمنحلات ، الغارقون فى حمأة الطين .

وأدرك شباب الصحوة أن الثقافة المسمومة التى تقدم إليهم فى وسائل الإعلام المختلفة ليست زاداً صالحا لإنشاء الأجيال المسلمة ، وأنه لابد من ثقافة إسلامية أصيلة، تستمد مناهجها من التصورات الإسلامية لا من تصورات الجاهلية المعاصرة . وأن مايسمى بالعلوم الاجتماعية بصفة عامة ، وعلى وجه الخصوص علم التربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ليست علوما موضوعية تؤخذ مقرراتها قضايا مسلمة ، كما حاول الغزو الفكرى أن يوهم الناس ، إنما هى « وجهات نظر » فى قضايا « الإنسان » و«الحياة الإنسانية » ملونة ابتداء بمواقف أصحابها من قضية الألوهية ، وتصورهم

لطبيعة العلاقة بين الكون والحياة والإنسان وبين الله ، خالق الكون والحياة والإنسان . ومن ثم فإن مايأتى من هذه العلوم من عند الغرب مشوب بالروح المتمردة على الله ، التى تسيطر على القوم هناك ، فلا تؤخذ قضايا مسلمة ، وإنما لابد من بديل إسلامى فى كل هذه العلوم .

وأدرك شباب الصحوة أن الاقتصاد الربوى حرام حرمة لاشبهة فيها ، مهما حاول المزورون أن يزوروا من الحجج والبراهين ، وأنه وصمة عار فى جبين المسلمين حين يستخدمونه ، وأنه لابد من السعى إلى إيجاد بديل إسلامى فى مجال الاقتصاد . .

وأدرك شباب الصحوة قبل هذا كله أن الحكم بما أنزل الله قضية متصلة بأصل الاعتقاد ، وأننا لانستطيع أن نكون مسلمين إذا رضينا بتشريع يحل ويحرم من دون الله .

وسرت هذه المقررات كلها إلى جماهير الناس بخطى ثابتة ، برغم الحديد والنار . . برغم التشريد والتعذيب . . برغم الضغط الإعلامى المصوب بكل عنف ضد هذه المقررات . .

* * *

ليس هنا مجال تفصيل القول فيما قامت به الصحوة ومالم تقم به . . إنما كان حديثنا هنا عن الظاهرة فى ذاتها . . ظاهرة الصحوة . .

إنها ـ كما نقول دائما ـ هى العودة إلى النبض الطبيعى لهذه الأمة . لذلك لانعجب لكون الأمة قد عادت إلى نبضها الطبيعى ، إنما كان العجب أنهاحادت عنه فى وقت من الأوقات .

إن الإسلام دين الفطرة .

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾(١) .

وأيًّا كانت الأسباب التى دعت الناس إلى الزيغ فى الماضى(٢) ، فقد جاءت الصحوة لتردهم إلى الطريق .

---

(١) سورة الروم : ٣٠ .

(٢) ذكرت جملة من هذه الأسباب فى كتاب « واقعنا المعاصر » فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف» .

جاءت قدراً ربانياً قدّره الله ، ليوقظ الأمة من سباتها ، ويردها من تيهها ، لتتسلم مهمتها فى الأرض مرة أخرى ، وقد آذنت شمس الحضارة الغربية بالغروب .

إنها حدث تاريخى ، وليست مجرد سطور متناثرة على صفحة التاريخ . .

* * *

ونحن نستبشر بالصحوة المباركة على الرغم من كل عثراتها ، ومن كل العقبات المرصودة لها فى الطريق . . وعلى الرغم من معرفتنا بطول الطريق ، وأنها ماتزال بعد فى أول الطريق !

إنها ـ بحول الله ـ أقوى من كل العثرات ، ومن كل العقبات . .

وهذه الحرب المرصودة لها فى الطريق لم تكن لترصد ، ولم يكن العالم الصليبى الصهيونى ليتجمع هذا التجمع الشرس الذى رأينا نموذجا منه فى البوسنة والهرسك ، لو لم تكن الصحوة شيئا حقيقيا ماثلا فى عالم الواقع ، ومبشرا بالمزيد . .

إن الأعداء يعرفون حقيقة هذا الدين :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . ﴾[1] .

ويعرفون أنه إذا استيقظ فى النفوس فهو قادر على مصارعة أعدائه مهما تكن قوتهم . . وقادر بعدذ لك على التمكن فى الأرض بما أودع الله فيه من قوة الحق ، ورصيد الفطرة ، وعمق اليقين .

وهذا الذى نستبشر به ، ونتوقعه فى الغد المأمول .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٦ .

الغــد المأمول

ليس الطريق إلى الغد المأمول مفروشا بالأزهار والورد . . بل هو مفروش بالأشواك والآلام والدماء . . دماء الشهداء الذين سيسقطون فى الطريق . .

إن العالم كله اليوم مصرّ على محاولة محو الإسلام من الأرض .

وليست هذه هى المرة الأولى التى يصرّ فيها الأعداء على هذه المحاولة ، منذ بعثة محمد ﷺ إلى اليوم ، فقد جاء فى كتاب الله الذى أنزل من نيّف وأربعة عشر قرنا قوله تعالى :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾[١] .

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [٢] .

والضمير فى الآيتين يعود إلى ذات الأعداء الذين يريدون اليوم أن يطفئوا نور الله : اليهود والنصارى والمشركين ، وعملائهم من المنافقين :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [٣] .

﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعو ا﴾ [٤] .

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ، ماهم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ [٥] .

---

(١) سورة الصف : ٨

(٢) سورة التوبة : ٣٢ .

(٣) سورة البقرة : ١٢٠ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٥) سورة المجادلة : ١٤ .

ولكن ربما كان الفرق بين المحاولة الحاضرة والمحاولات السابقة أنه فى المحاولات السابقة كان بعض الأعداء يهاجمون بعض أجزاء من العالم الإسلامى فى الوقت الواحد . أما فى هذه المرة فالهجوم واقع من جميع الأعداء، وعلى العالم الإسلامى كله فى وقت واحد.

وثمت فارق آخر ، ربما كان هو السبب فى الحقيقة فى وجود الفارق الأول: هو أن العالم الإسلامى ـ فى مجموعه ـ لم يكن فى وقت من الأوقات أضعف منه الآن . .

وقد تبدو الهجمة الشرسة مستغربة مع ضعف العالم الإسلامى ، واستسلامه لما يراد به عسكريا وسياسيا واقتصاديا وفكريا ، وعجزه عن رد اللطمات المتلاحقة الموجهة إليه عن يمين وشمال .

ولكن ربما يزول العجب إذا عرفت الأسباب . .

وهناك سببان اثنان على الأقل لهذه الهجمة الشرسة التى يتكاتف على توجيهها كل أعداء الإسلام ، حتى الذين بين بعضهم وبعض عداوات حادة كالتى بين الصرب والكروات ، تمنع التقاءهم على أى شىء . . إلا محاربة الإسلام !

السبب الأول أن أعداء الإسلام الذين تآمروا ضده خلال القرنين الماضيين ، وخططوا وأحكموا التخطيط ، ونفذوا بدقة كل مخططاتهم ، كانوا قد ظنوا أن تخطيطهم سيقضى على الإسلام القضاء الأخير ، وأنهم سيرتاحون إلى الأبد من ذلك العدو الذى دوخهم خلال التاريخ . وكان القضاء على الدولة العثمانية بالذات ، وتفتيت تركة « الرجل المريض » إلى دويلات هزيلة ضعيفة فقيرة وفوق ذلك متعادية متنابزة ، أكبر نصر انتصروه على الإسلام فى التاريخ كله ، ففركوا أيديهم سرورا بنجاحهم ، وجلسوا يقطفون الثمار . .

وفجأة برزت الصحوة !

ولم يكن إمكان حدوث اليقظة غائبا عن أذهانهم ، بل كان له مكانه الواضح فى تخطيطهم . .

فى عام ١٩٠٧ م ظهر تقرير لورد كامبل . وهو أحد اللوردات البريطانيين ، كانت بريطانيا (العظمى يومئذ !) قد عهدت إليه بدراسة ماكان قد بدأ يقلق الدول الاستعمارية من بوادر اليقظة فى المنطقة العربية من العالم الإسلامى . فقام بالمهمة ودرس

الأمر ، وخرج بتقريره الموجه إلى الدول الاستعمارية كلها فى الحقيقة ، وإلى بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة ، بوصفهما المهيمنتين الرئيسيتين على القسم العربى من العالم الإسلامى ، فقال « هناك شعب واحد يسكن من الخليج إلى المحيط ، لغته واحدة ، ودينه واحد ، وأرضه متصلة ، وتاريخه مشترك . وهو الآن فى قبضة أيدينا ، ولكنه أخذ يتململ ، فماذا يحدث لنا غدا إذا استيقظ العملاق ؟» . ثم أجاب على السؤال بما يطمئن « أصحاب الشأن » فقال : « يجب أن نقطع اتصال هذا الشعب بإيجاد دولة دخيلة ، تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة ، وتكون بمثابة الشوكة ، تخز العملاق كلما أراد أن ينهض !! »[1] .

تلك هى إسرائيل . . مؤامرة صليبية صهيونيةواضحة ضد الإسلام . .

ولكن « أصحاب الشأن » لم يكتفوا بذلك فى مواجهة الصحوة المتوقعة التى عبر عنها « كامبل » بأن العملاق قد « أخذ يتململ » . فقد ربوا «زعامات» و«قيادات» تستوعب الغضبة إذا حدثت فى نهاية الأمر على الرغم من كل الاحتياطات ، وتحولها إلى زَبَدٍ ، ينتشر على السطح ، ثم ينفثئ بعد فترة دون أن يخلف شيئا على السطح ! زعامات «سياسية» وقيادات «شعبية» تملأ الجو عجيجا، ثم لاتمس فى النهاية « مصالح » أصحاب الشأن ،بل قد تزيدها رسوخا ، والشعوب لاهية تصفق للقادة «الأبطال»وهم يُسْلِمُون بلادهم للدمار !

وهذا بجانب السينما والمسرح والإذاعة (ولم يكن التليفزيون قد ظهر بعد) والصحافة ومناهج التعليم . . وتحرير المرأة[2] !

ومع ذلك كله قامت الصحوة !

فماذا تتوقع من الذين كانوا قد خططوا ، وظنوا أن تخطيطهم قد قضى على الإسلام بغير رجعة ؟!

أما السبب الثانى ـ المتصل بالصحوة كذلك ـ فهو ماألمحنا إليه من قبل ، من معرفتهم بحقيقة هذا الدين ، وبأن هذه الصحوة إن استقرت فى القلوب فلا سبيل إلى وقفها حتى تأخذ مداها . .

---

(١) راجع تقرير لورد كامبل فى منشورات الجامعة العربية بالقاهرة .

(٢) تحدثت عن هذه الأمور بشىء من التفصيل فى كتاب «واقعنا المعاصر » ص ٢١٥ ـ ص ٢٦٣ .

من هذين السببين معاً : الحنق من فشل مخططات قرنين من الزمان أو أكثر، والفزع على « المصالح » التى تهددها الصحوة الإسلامية إذا استمرت فى الامتداد ، نستطيع أن ندرك السعار المحموم الذى يجرى فى الأرض كلها لضرب الحركة الإسلامية .

ولو كانت هذه « المصالح » مشروعة ، أو معقولة ، فما كان لها أن تخشى من الإسلام من شىء ، والإسلام هو الذى أمَرَ بالعدل مع أهل الكتاب ، فوجه الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : ﴿ . . . وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب[1] ، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . . ﴾[2] .

ولكن « مصالحهم » التى يعلنونها أحيانا ويسرونها أحيانا هى ألا يكون إسلام فى الأرض . . ودون ذلك تقف مشيئة الله .

﴿ . . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾[3] .

* * *

إذا فهمنا سر الهجمة الشرسة ، وأدركنا الإصرار المحموم على ضرب الحركات الإسلامية لإبادتها ، فما الذى نتوقع من أمرها فى الغد القريب أو الغد البعيد ؟

نتوقع كل الخير . . !

ولانقول هذا من باب تصديق الأمانىّ ! إنما نقوله على ثقة بوعد الله ، وعلى ضوءٍ من السنن الربانية التى يجريها الله ويُجْرى بها أمور البشر فى الأرض .

فأما الغرب الصليبى الصهيونى وعملاؤه فإنهم يعملون بحماقة شديدة ضد «مصالحهم» !

إنهم بهذا السعار المحموم الذى يمارسونه فى محاولة إبادة الحركات الإسلامية ، يربون الجيل الذى لن يقدروا عليه ! ويتم ذلك فى غفلة منهم، بتدبير ربانى ، كأنما قدر الله يسوقهم سوقا لإخراج ذلك الجيل على أيديهم !

إن الانفجار يحدث دائما حين يستوى الموت والحياة عند الناس ، أو حينما يكون الموت أيسر على الناس من الحياة !

---

(١) ومنها الكتب المنزلة إليكم . (٢) سورة الشورى : ١٥ .
(٣) سورة التوبة : ٣٢ .

وكل الانفجارات التى حدثت فى التاريخ سبقها سعار محموم لإبادة تيار متصاعد ، ظن الطغاة أنهم يستطيعون القضاء عليه بالقهر والتعذيب !

والذى يجرى فى الأرض كلها اليوم من محاولات لإبادة المسلمين ، سواء فى البوسنة والهرسك ، أو كشمير، أو فلسطين ، أو بورما ، أو طاجستان ، أو داخل سجون التعذيب . . لن تكون نتيجته إلا إخراج أجيال أصلب عودا، وأكثر عنادا ، وأطول نفسا ، وأكثر وعيا بحقيقة المعركة التى تدور فى الأرض بين دين الله وأعداء الله .

وتلك النتيجة هى ـ بيقين ـ ضد « مصالح » أصحاب الشأن !

ولو تعقلوا مافعلوا ذلك . . ﴿ ولو شاء ربك مافعلوه ﴾[1] .

إن الإسلام قادم ، من أىّ طريقيه جاء ، كما قلنا فى كتاب « دروس من محنة البوسنة والهرسك » ، إما بتيار هادئ يعمل فى رزانة وتؤدة ، ليصل على مهل إلى أهدافه ، وإما بتيار غاضب صاخب ، يلجأ إلى العنف ويستعجل الطريق !

ونحن ـ كما قلت فى ذلك الكتاب ـ نفضل ألف مرة التيار الهادئ ، الذى يعمل فى رزانة وتؤدة ، ولو استغرق عمله بضعة أجيال ! ولكن ماحيلتنا فى حماقات الغرب، وحماقات إسرائيل ؟!

* * *

إذا كان هذا حال الأعداء . . فما حال الصحوة ؟

إذا راجعنا مسار الصحوة ـ كما ينبغى لنا أن نفعل ـ فسنجد ـ كما ألمحنا من قبل ـ أنها قامت بجهد كبير ، تبدو آثاره واضحة على الساحة . ولكنهاتعجلت كثيرا فى بعض الخطوات ، وأبطأت كثيرا فى بعض المجالات ، وتركت بعض المجالات فلم تبذل فيها الجهد المطلوب . .

وليس هنا مجال التفصيل فى ذلك كله [2] . ولكن لابد من إشارات سريعة توضح مانقول .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٢ .

(٢) أرجو أن يوفقنى الله إلى كتابة بحث بعنوان « كيف ندعو الناس» .

قامت الصحوة بجهد « إعلامى » كبير ، على الرغم من حرمانها المتعمد من معظم وسائل الإعلام !

والوعى الإسلامى القائم عند الجماهير اليوم ، مرده ـ بعد فضل الله ـ إلى الصحوة المباركة ، وإلى الجهد الدائب الذى بذلته خلال أكثر من نصف قرن فى تعريف الناس بالإسلام .

وذلك جهد لابد أن يذكر . .

فلو أننا راجعنا حال المسلمين فى القرن الماضى ، ومدى الغربة التى لفّت الإسلام فى طياتها ، حتى أصبح غريبا على أهله ، وأصبح مايتمسكون به على أنه الإسلام كأنه دين أخر غير دين الله المنزل . . إذا راجعنا تلك الحال، وقارناها بالحاضر الذى تمور به الساحة مورا ، أدركنا على الفور مدى الجهد الذى بذلته الدعوة فى هذا المجال .

ولقد كان أبرز ماقامت به الصحوة فى هذا المجال هو العمل لإزالة آثار الفكر الإرجائى والفكر الصوفى والتفلت من التكاليف ، أو فى القليل تخفيف آثارها . . وقد كانت هذه الثلاثة من أشد ما أصاب الأمة الإسلامية بالضعف والخذلان .

وكان من أبرز ماقامت به كذلك التركيز على معنى لا إله إلا الله ، وأنها ليست مجرد الكلمة المنطوقة باللسان ، وأن الإيمان ليس قولا معزولا عن العمل، إنما هو ـ كما قال السلف ـ قول وعمل . . عمل بمقتضيات لا إله إلا الله فى الواقع المشهود . . وقد كان حصر الإيمان فى نطق لا إله إلا الله ، أثرا من أثار الفكر الإرجائى من ناحية ، والرغبة فى التفلت من التكاليف من ناحية، والتضليل الذى قامت به أجهزة الغزو الصليبى الصهيونى من جهة ثالثة ، لتخدير المسلمين عن حقيقة لا إله إلا الله ، وصرفهم عن أى محاولة جادة لترجمتها واقعا حيا متحركا كما هى حقيقتها التى نزلت بها من عند الله .

كذلك كان من آثار الصحوة إزالة الانبهار بما عند الغرب ، أو ـ فى القليل ـ التقليل من آثاره على أرواح الناس . . وقد كان هذا الانبهار من أشد عوامل عبودية الناس للغرب المستعمر ، وتخذيلهم عن مجرد التفكير فى مقاومته حتى داخل أفكارهم ومشاعرهم، فضلا عن مقاومته فى الواقع المحسوس.

ومن ميزات الصحوة هنا أنها لم تناد بإغلاق الأبواب على كل مايجئ من عند الغرب، ولم تدع إلى العزلة عن ركب الحياة الحىّ ، إنما نادت بضرورة الانتقاء ـ على بصيرة ـ مما

عند الغرب ، وأخذ ما لابد من أخذه ، وترك ما لابد من تركه ، والاستفادة بها أخذ بتطويعه للمنهج الإسلامى ، وليس بتطويع الإسلام لمناهج الغرب . .

ويحسب للصحوة كذلك عملها الضخم فى ميدان المرأة . . وقد كان ميدان المرأة من أكبر المجالات التى عمل فيها الغزو الفكرى ، لإخراج المجتمع كله من الإسلام . فالأم هى التى تبذر فى أطفالها فى سنيهم الأولى مبادئ العقيدة ومبادئ الفضيلة ومبادئ الأخلاق ، فإذا أفسدت الأم وهى بعد فتاة ، فنزعت حجابها ، وأهملت عبادتها ، وشُغِلَتْ عن ربها وآخرتها بالجرى وراء « المودة»وأدوات الزينة والخروج من البيت ابتغاء الفتنة والتبرج ، فلن تربى أبناءها حين تصبح أُمـاً على شىء من العقيدة ولا الفضيلة ولا الأخلاق ، لأن فاقد الشىء لايعطيه . وقد بذل الغزو الصليبى الصهيونى جهدا جبارا فى هذا المضمار ، بحيث يصبح من المتعذر على المرأة المسلمة الملتزمة المتحجبة أن تعيش فى المجتمع السافر المتفسخ المتسيب الذى يعج بألوان الفساد . . لذلك ينظر دعاة الغزو الفكرى اليوم فى ذهول بالغ وحنق محموم إلى ظاهرة الحجاب ، التى لم تشمل فتيات الجامعة فحسب ، بل وصلت إلى « الفنانات » ، آخر من يتصور أن يعدن إلى الله !

كل ذلك يحسب ـ من بعد فضل الله ومَنِّه ـ لجهود الدعوة فى أكثر من نصف قرن .

ولكن الدعوة تعجلت فى أمور ، ظناً منها أنها أصبحت كفئاً لتلك الأمور . .

تعجلت فى الصدام مع السلطة ، وتعجلت فى طلب الوصول إلى الحكم .

إن الصدام بين السلطة والدعوة ـ فى فترة الاستضعاف ـ لايجوز أن يجئ من جانب الدعوة ، إنما هو يأتى دائما من جانب السلطة . وحين تضرب السلطة الدعوة الإسلامية وهى لا تصنع شيئا إلا أن تبيّن للناس حقيقة لا إله إلا الله ، فسيعرف الناس ـ بشهادة الواقع ـ مكان تلك السلطة من الإسلام ، وموقفها من دعوة لا إله إلا الله . أما حين تجد الفرصة لاستدراج الحركات الإسلامية إلى معركة غير متكافئة ، فهى تنجح فى تلبيس الأمر على «الجماهير» فتوهمها أنها لاتحارب الإسلام ، وإنما تحارب التطرف» . . فيتأخر بذلك وعى الجماهير بالقضية ، وهو عنصر مهم فى الحركة لاغنى عنه .

كذلك التعجل فى طلب الوصول إلى الحكم . . إنه قائم على الانخداع بحماسة الجماهير . . والحماسة الوجدانية شىء ، وتجنيد الناس أنفسهم لقضية لا إله إلا الله

شيء آخر مختلف . . شيء تصنعه التربية ولاتصنعه الخطب الحماسية ولا الكتب ولا المحاضرات!

والتربية هي الجانب الذي نقول إن الصحوة قد أبطأت فيه ، مع أنها هي العصب الحيّ للدعوة ، الذي يضمن ـ بعد فضل الله ـ ثبات القلوب على الحق ، واستقامتها على الطريق ، سواء في مرحلة الدعوة أو في مرحلة التمكين حين يمنّ الله بالتمكين .

إن الحماسة للإسلام جميلة . . ويحسب للصحوة بلاشك تغييرها الصورة العامة للمجتمع ـ وللشباب خاصة ـ من الصورة اللاهية العابثة ، المتفلتة المتسيبة ، اللاهثة وراء الغرب ، الغارقة في دنس التصورات ودنس السلوك ، إلى صورة فيها التزام وتعبد ، وانشغال عن اللهو وتوجه إلى الله ، وحماسة للدعوة .

ولكن هذه هي البداية في حين ظن كثير من الدعاة أنها الغاية . .

مابين الحماسة الملتهبة للإسلام وبين تحقيق متطلبات الإسلام في النفس والواقع وتجنيد الناس أنفسهم له بوعي وبصيرة ، مسافة طويلة تغطيها التربية البطيئةالهادئة الهادفة المستنيرة . .

ولايمكن بطبيعة الحال أن تُرَبّى أمة بكاملها دفعة واحدة ، ولايمكن ـ مهما كان جهد التربية ـ أن يتربى كل فرد في الأمة على النمط المطلوب . فإن هذا لم يحدث في أي مجتمع من مجتمعات التاريخ ، ولاحتى في المجتمع الذي أنشأه أعظم مرب في تاريخ البشرية ، محمد رسول الله ﷺ . فقد كان في ذلك المجتمع منافقون ، ومُبَطِّئون ، ومثّاقلون ، وقوم ضعاف الإيمان ، وقوم خفاف الأحلام تستطيرهم الشاردة والواردة كما جاء وصفهم جميعا في كتاب الله :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جُنَّةً فصدوا عن سبيل الله . إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴾ (١) .

﴿وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ـ ياليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيما﴾ (٢).

---

(١) سورة المنافقون : ١ . (٢) سورة النساء : ٧٢ ـ ٧٣ .

﴿ يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾[1] .

﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟! لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا ﴾[2] .

« وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم . ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا ﴾[3] .

نعم . . ولكن القاعدة التى رباها رسول الله ﷺ على عينه خلال ثلاثة عشر عاما فى مكة وعشر سنوات فى المدينة كانت من القوة والصلابة ورسوخ الإيمان بحيث حملت هؤلاء جميعا وتحركت بهم لتحقيق الأهداف التى أخرج الله هذه الأمة من أجلها :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[4] .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[5] .

وبناء القاعدة الصلبة ينبغى أن يكون هو الشاغل الأول والأكبر للحركة الإسلامية قبل أن تتحرك فى أى اتجاه . . وهذه القاعدة ـ بعد إنشائها بالمواصفات المطلوبة ـ ستكون هى القيادة التى تقود الأمة للخروج من التيه . .

* * *

إذا كان هذا هو حاضر الدعوة ، وحاضر العالم المتكتل اليوم فى سعار محموم للقضاء على الإسلام . . فما المتوقع فى الغد ؟

---

(١) سورة التوبة : ٣٨ .
(٢) سورة النساء : ٧٧ .
(٣) سورة النساء : ٨٣ .
(٤) سورة آل عمران : ١١٠ .
(٥) سورة البقرة : : ١٤٣ .

المتوقع ـ من خلال هذا الاضطهاد العالمى للإسلام ـ أن تنضج الدعوة !

وتلك سنة ربانية يجريها الله من خلال حماقات الطغاة فى كل التاريخ :

«ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين؟! »[1] .

ستتعلم الحركات الإسلامية من خلال الواقع أن الأعداء لايحاربون جماعة بعينها ، لأسباب كامنة فى تلك الجماعة ، إنما يحاربون الإسلام كله ، فى أى صورة من صوره ، والمتوقع ـ من فضل الله ـ أن يقرب هذا الأمر بين الجماعات المتباعدة ، ويزيل بالتدريج مابينها من خلافات ، حين تجد نفسها كلها فى خندق واحد ، يحيط به الأعداء من كل جانب . .

وستتعلم الحركات الإسلامية من خلال الواقع أن « معرفة » مقتضيات لا إله إلا الله شىء والقيام بتحقيقهافى داخل النفس ثم فى واقع المجتمع أمر آخر مختلف ، ومن ثم فإن تعريف الناس بمقتضيات لا إله إلا الله ـ على كل ضرورته وأهميته ـ لايكفى وحده! إنما المطلوب تحقيق هذه المقتضيات فى النفس وفى الواقع ، وتلك مهمة التربية التى لاغنى عنها، وأنه بغير هذه التربية ـ فى القاعدة على الأقل ـ تظل الحركة شعارات بغير واقع ، فلا تستحق عند الله التمكين ، ولاتقنع الناس بإمكان التغيير !

وستتعلم الحركات الإسلاميةمن خلال الواقع أنه لابد لها من وعى سياسى، يمنع عنها الانخداع بكل مدّعٍ يدعى أنه تاب وأناب ، وأصبح قائدًا للمسلمين ! أو يتظاهر بأنه واقف ضد أمريكا أو إسرائيل وهوعلى رأس العملاء المتآمرين ! ووعى حركى يمنع عنها الوقوع فى المنزلقات التى يستدرجها إليها الأعداء ، ويضبط إيقاع حركتها مع مقتضيات الأحداث . .

وحين تنضج الحركة فكريا ، وأخلاقيا ، وحركيا ، فإنها ستكون أصلب من أن يؤثر فيها كيد الأعداء ، لأنها ستكون على الشرط الذى اشترطه الله :

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٢ .

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط ﴾[1] .

* * *

أما الأعداء فلهم شأن آخر . .

إنهم اليوم ـ فى كل الأرض ـ طغاة متجبرون يكيدون للإسلام بكل مايملكون من وسائل الكيد . . والقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية فى أيديهم . .

وقد علمتنا وقائع التاريخ ـ التى هى تحقيق السنن الربانية فى واقع الأرض ـ أن هذا كله بغير « قيم » لايعيش ! وأن هذه الوسائل كلها تمكّن للباطل فترة من الوقت ـ بحسب سنة ربانية ـ ثم ينهار الباطل فى النهاية :

﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾[2] .

وقد انهار الباطل فى نصف الأرض ، وانهياره فى بقية الأرض قاب قوسين . .

والبديل الذى يحمل القيم هو الإسلام . . والقيمة العظمى فيه هى الإيمان بالله على بصيرة ، وضبط الحياة بالضوابط الربانية ، وتحقيق المنهج الربانى الخيّر المبارك فى واقع الحياة . .

ولكن لابد من جهد يبذله البشر لتحقيق ذلك كله . فبغير جهد وجهاد لايتحقق شىء فى واقع الأرض . .

وفى الغد المأمول يقوم بهذا الجهد فريقان من البشر ، أحدهما تمثله الصحوة القائمة اليوم فى العالم الإسلامى ، التى تزداد قوة ونضجا بما يقع عليها من المذابح والاضطهاد . . حسب سنة الله . والفريق الآخر الذى لايحسب حسابه كثيرا اليوم ، وهو قدر من أقدار الله ، يجئ فى وقته المقدور عند الله ، هو المسلمون من عالم الغرب

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٠ . (٢) سورة الأنعام : ٤٤ ـ ٤٥ .

ذاته ، الذين يتزايد عددهم باستمرار ، وهم من مثقفى الغرب النشيطين فى حقل الدعوة ، والنساء منهم خاصة ، اللواتى يتحدين بواقعهن كل مفتريات الغرب عن ظلم الإسلام للمرأة ، ويعلنّ ـ بواقعهن ـ أن أعظم تكريم للمرأة هو الذى يقدمه الإسلام .

وفى الوقت المقدور عند الله تقع المعركة الفاصلة التى تتزايد اليوم إرهاصاتها .

﴿ . فإذا جاء وعد الآخرة لِيَسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا﴾(١) .

﴿ . . فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾(٢) .

« لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر يامسلم ، ياعبد الله ! هذا يهودى خلفى ، فتعال فاقتله . . »(٣) .

وعندئذ يتغير التاريخ . . ويدخل الناس فى دين الله أفواجا كما دخلوا أول مرة ، ويقدر الله جولة أخرى ممكّنة للإسلام فى الأرض . ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾(٤) .

---

(١) سورة الإسراء : ٧.
(٢) سورة الإسراء : ١٠٤.
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) سورة يوسف : ٢١ .

الفهـــرس

رقم الايداع: ١٠٠٤٣ / ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0242 -x

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف ; ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣


محمد قطب
دراسات فى النفس الإنسانية
التطور والثبات فى حياة البشرية
منهج التربية الإسلامية (١ - ٢)
منهج الفن الإسلامى
جاهلية القرن العشرين
الإنسان بين المادية والإسلام
دراسات قرآنية
هل نحن مسلمون
شبهات حول الإسلام
فى النفس والمجتمع
قبسات من الرسول
معركة التقاليد
مذاهب فكرية معاصرة
مفاهيم ينبغى أن تصحح
كيف نكتب التاريخ الإسلامى
لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
دروس من محنة البوسنة والهرسك
هلم نخرج من ظلمات التيه